

الاطلال فى الشعر الجاهلى
الدلالة والرمز

للدكتور

مصطفى عبد الشافى الشورى

كلية الآداب - جامعة عين شمس



يلاحظ القارئ، لقمائد الشعر الجاهلي أن كثيرا من الشعراء وقفوا في بدايات هذه القمائد على الأطلال ، ويلاحظ أيضا أن هذه البدايات تكرر وتعددت لدى كثير منهم ، وذلك يؤكد أن تلك المقدمات كانت ذات أهمية خاصة ، وأنه لابد من وجود سبب هام لدى الشاعر الجاهلي يفرض عليه تكرارها وتداولها .

ولقد اختلفت نظرة النقاد والباحثين المحدثين حول الوقوف على الأطلال في مقدمات القمائد الجاهلية ، فالمستشرق " جب " لا يرى في الأطلال أو البداية بها إلا مجرد تقليد جاف صارم لا يختلف من شاعر لآخر ، وكأنه كان قانونا سائدا عندهم ، فهو يقول : " في بدايات القمائد يتخيل الشاعر أنه يسافر على جمل يصحب رفيق أو رفيقان ، ويقضى به الطريق إلى مكان الإقامة السابقة لقبيلته أو قبيلة صديقه وبقاياها التي نازلت موجودة ، فيلتصق من رفيقه الوقوف للحظة ، ويأسى يأخذ في تذكر كيف قضى أسعد أيامه - منذ سنين مضت - هنا مع محبوبته ، والآن قد فرقت بينهما الحياة بتقلبها المستمر " (١)

هذا ظاهر الوقوف عند " جب " ويبدو أنه قد اعتمد على رأى ابن قتيبة

فى بيان أغراض القميدة وتسللها (٢).

وأما الدكتور محمد الكفراوى فيرى " أن الشعر العربى كما يفهم من اشتقاقه بدأ أول الأمر فى صورة نجوى بين المرء ونفسه يترجم بها عن مشاعره ويتفنن فيها بآماله وآلامه وعواطفه ونزعاته كلما طال عليه الليل ، أو امتد به الطريق ، فيحيل تلك المشاعر والعواطف ألحانا عذبة وأنغاميد شجية ، وأى شئ أحب إلى نفسه وألحق بفؤاده من حبيبته يترجم ذكرياته معها ، حلوها ومرها . فإن حال الزمان بينهما فارتحلت عن ديارها على عادة البدو لم يجد سوى الربيع الخالى يروى أرضه بدموعه حيناً ، ويسأله عن الحبيبة الراحلة أحياناً ، ويلتمس فى جوانبه مواطئ أقدامها ، ومتجع جنبها ، ومن يسدى لىل الشاعر العربى لم يكن يبكيه حبيبته أو يرثى لعشها المهجور فقط ، بل كان يبكى - من حيث لا يشعر - ذلك الحظ التمس الذى منى به هو وأمثاله من البدو حين فرضت عليهم ضرورة الحياة أن يظلوا متنقلين على رقعة الصحراء ، كأنهم قطع الشطرنج ، تاركين فى كل مكان فلذة من أكبادهم ، وقطعة من تاريخهم فهم دائماً غرباء ، وهم دائماً على سفر فى اجتماع وافتراق ، ووصل وهجران ، مختارين حيناً ، ومكرهين أحياناً " (٣)

فالقوف عند الدكتور الكفراوى أمام الأطلال جاء نتيجة لما أثارته عاطفة

-
- (٢) انظر الشعر والشعراء لابن قتيبة - تحقيق أحمد محمود شاکر ، طبعة دار الكتب المصرية ١٩٦٧ - ١ : ٧٥ . يقول ابن قتيبة : " إن مقصد القميدة إنما ابتداء فيها بذكر الديار والدمن والآثار ، فشكا وبكا ، وخاطب الربيع ، واستوقف الرفيق ليجمع ذلك سببا لذكر أهلها الطاعنين عنها " .
- (٣) الشعر العربى بين الجمود والتطور - طبعة شهنة مصر بالقاهرة - ص ٢٩ .

الحب المفقود الذى عاشه الشاعر يوما ما بين جنبات هذه الأطلال عندما كانت عامرة بأهلها ، لكننا نجد بعد ذلك يلوح بأن الوقوف على الأطلال ربما يعبر عن أبعاد نفسية عميقة تتعدى مسألة الحية ، أراد الشاعر من خلال وقوفه أن ينفس عنها .

ويرى الدكتور يوسف خليف أن مقدمة القصيدة الجاهلية فى حقيقة أمرها " لم تكن أكثر من فرصة أتاحها التقاليد الفنية الموروثة ليتخفف فيها الشعراء من الالتزامات القبلية التى يفرضها عليهم العقد الفنى بينهم وبين قبائلهم ، وتفرغوا للتعبير عن ذواتهم وشخصياتهم فى محاولة جاهدة لتحقيق وجودهم الضائع فى زحمة هذه الالتزامات ، ففى وضعها الطبيعى القسم الذاتى من القصيدة الجاهلية ، وكل من يتتبع الشعر الجاهلى يلاحظ أن هذه المقدمة اتجهت اتجاهات مختلفة ، وهى اتجاهات نستطيع أن نردها إلى ثلاثة دوافع أساسية : الحب ، والخمر ، والفروسية . وهى نفسها الوسائل التى كان الجاهليون يحاولون عن طريقها حل هذه المشكلة ، وأبرز هذه الاتجاهات وأكثرها ظهورا فى الشعر الجاهلى هى المقدمة الطللية ، وهى مقدمة وجدت هوى شديدا فى نفوس الشعراء الجاهليين لارتباطهم بميئتهم المادية ، وطبيعة حياتهم الاجتماعية ، إذ هى تعبیر عن تلك الظاهرة الطبيعية فى المجتمع البدوى ، ظاهرة الحركة التى كانت نتيجة للتفاعل الحتمى بين البيئة والحياة ... وإنما يترأى الشاعر فى هذه المقدمة وكأنه يعبث فى أساة حزينة أساسها الفراغ الداخلى والخارجى فى الأطلال ، تتراءى قطمان من الظباء والبقر الوحشى آمنة فى سارحها وكأنها بقية الحياة فى هذه الأطلال ، أو كأنها تجسيم حى للحرة

التي تملأ نفس الشاعر " (٤) .

أما المستشرق الألماني " فالتر براون " فإنه يرى أن النمط المستعاد للمقدمات الطللية هو الحب والحياة والشوق إلى الحبيب ، غير أن بعض القوائد تشذ عن هذا النمط ولا تتبع القاعدة المعتادة ، ويمثل ذلك بمقدمة عبيد بن الأبرص في معلقته والتي تقول : (٥)

وغيرت حالها الخطوبُ	إِنْ بَدَلْتُ أَهْلَهَا وَحُوشًا
وكلُّ مَنْ حَلَّهَا مَحْرُوبُ	أَرْضٍ تَوَارَتْهَا شُوبُ
والشيبُ شَيْنٌ لِمَنْ يَشِيبُ	إِمَّا قَتِيلًا وَإِمَّا هَالِكًا

هكذا يفتح الشاعر قصيدته بنسيبه ، ولكن أيتذكر الحبيب؟ أيشكوالمباية؟ كلا ، إنه يفتح القصيدة بخلو من التشبيب ، وما أغرب موضوع هذا النسيب ! إنه شاذ على النمط المعروف " (٦) . ويخلص من ذلك إلى أن النسيب وإن تعددت أنواعه ، واختلفت مظاهره وموره ، " يخضع جميعه لفكرة واحدة ، ويندرج تحت غرض واحد ، هو : اختبار الفناء والتناهي . فالإنسان في كل زمان ومكان يأل عن وجوده ومصيره ونهايته ، وبصفة خاصة ، كان هذا السؤال يؤلم الشاعر الجاهلي ويفاضقه ، فطالما ردد عبارات : عفت الديار ، وامحت الرسوم ، فهل ستكون حياته مثل تلك الديار التي كانت تمتلئ بالحركة والحياة

(٤) مقال في مجلة المجلة بعنوان: " مقدمة الأطلال في القصيدة الجاهلية " ،

ص ٣٥ - ٤٤ ، العدد ١٠٠ ، السنة التاسعة ، ابريل ١٩٦٥ .

(٥) ديوان عبيد بن الأبرص تحقيق الدكتور حسين نمار طبعة الحلبي ١٩٥٧-ص ٢٤ .

(٦) انظر مقال: " الوجودية في الجاهلية " في مجلة المعرفة السورية، العدد

الرابع ، السنة الثانية - لسنة ١٩٦٣ ، ص ١٥٦ - ١٦١ .

يوم أن كان أهلها فى ربوعها ، ثم تحولت إلى تقار سوحشة يخيم عليها الكون والموت ، وتبدلت من أهلها وحوشا ؟ !! غير أنه لم يكن تعبيرا صادقا عن تشاؤم ، وإنما كان حافزا يحفز به إلى الإقبال على الحياة ، واستئناف الرحلة بروح وثابة . ثم يقول فالتر براون : " إن كل مظهر من مظاهر الحياة كان يبعث الشاعر الجاهلى على التساؤل عن مصيره من ذهاب الشباب ، وانتهاء أيام الرشد ، ومن الشيب الذى يشمل الرأس . كل ذلك كان يعلن الفناء والتناهى ، فإنه كان يشعر دائما بتهديد الفناء وتوعده وهو ينظر إلى الموت اليقين ،
 إن المرقش الأصغر يعرف الحقيقة ويقولها فى بيت واحد :^(٧)

تبكى على الدهر ، والدرم الذى أبكاك ، فالدمع كالشئ الهزيم

وقد تابعه فى ذلك الدكتور عز الدين اسماعيل الذى كتب مقالا أيضا تحت عنوان : " النسيب فى مقدمة القميدة الجاهلية فى ضوء التفسير النفسى " ،^(٨)
 كشف فيه عن أن غريزة حب الحياة وغريزة حب الموت " تعملان على الدوام معا وأن الموت بذلك ليس فتلا يحدث عند انتهاء الحياة ، وإنما هو فعل يهدأ دائما منذ اللحظة التى تبدأ فيها الحياة ، فكل لحظة تمر هى هزيمة للحياة وانتصار للموت ، فالإنسان يموت كل لحظة وكل يوم موتا جزئيا لا يكاد يشعر به ، ولعله لا يريد بطبيعته ألا يشعر ، وإنما هو أميل بطبيعته إلى الإقبال على الحياة ، مدفوعا إلى ذلك بغريزة الحب . " ثم نراه يفسر مبدأ التزاوج

(٧) المغفليات للنضى تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون -

طبعة دار المعارف ١٩٦٣ - ص ٢٤٩ .

(٨) انظر مجلة الشعر العربى - العدد الثانى السنة الأولى فبراير ١٩٦٤ - ص ١٤٤ .

بين المتعة والألم المتمثل في الحب المهدد بخطر الرحيل ، والحياة المهددة بالخراب والمتمثلة في الظلل ، هذا المبدأ الذى يتحدث عنه فرويد على أنه الصراع الأبدى بين حب الحياة " إيروس " وغريزة الموت " ثاناتوس " .

وأما الدكتور مصطفى نامف فيقول فى كتابه " قراءة ثانية لشعرنا القديم " :
 " من المحتمل إذن أن نقول إن الظلل هو رمز الزمن الذى يتم - رغم ما يشوبه من قوة الماضى والانقلاط - بالإيجابية الواضحة ، الظلل ليس قيّدا ، ولا نقصانا ولا إنكالا مطلقا فى حياة الانسان ، ذلك أنه من الممكن أن يعود ، وأن يبعث من جديد ، وهكذا يقول كل شاعر : إن لى ظللا أنتمى إليه ، يريد أن يقول : إن جذور الحياة عميقة ، ومن ثم يمكن أن تكون الشجرة وقروعا عالية ، ولكن الفرق بين الجذر المختفى تحت الأرض والساق والأوراق البادية المنطلقة يخدع العين عن حقيقة الملة بينهما ، ولا بد من عملية دفن وتصحية من أجل الأزدهار " (٩) .

إن البكاء على الظلل حزن ، ولكنه حزن إيجابى ، إنه الدموع التى تملن عن تعلق الشاعر بالماضى الذى لم يعد - كما يظهر لنا - فناء أو عدما ، إن الاقرباق ، والشاعر ينتخ فيه من روحه ، يذكره ، ويذكر به إخوانه ، فإذا كان الماضى قد ذهب ، والأس قد انتهى ، فليس معنى ذلك أنه لن يعود ، فاليوم حرة له ، وهذه الأطلال رموز باقية ، وما يكاء الشاعر ووقوف إخوانه معه إلا لتقلد له من عالم النسيان والمنيب إلى دنيا التذكر والمشاهدة .

(٩) قراءة ثانية لشعرنا القديم - طبعة دار الأندلس ببيروت ، الطبعة الثانية

وأختتم هذه الآراء برأى الدكتور حسين عطوان الذى يرى " أن المقدمات جميعا لا تعدو أن تكون ذكريات وغربا من الحنين إلى الماضى والنزوع إليه ، فإن الشعراء دائما يرددون بأبصارهم إلى الوراء ، إلى أغلى جزء مضى وانقضى من حياتهم ، يوم أن كانوا فى ريعان الشباب ، لا هم لهم ، ولا شئ يشغلهم سوى العكوف على اللهو والمتعة ، وهو جزء زاهر بالذكريات ، ذكريات الحب وأيامه الخالية ، تلك الأيام التى قضاها مع لداتهم من الفتيات الفريشات والخاتنات ، وذكريات الشباب بما فيه من فتوة وفروسة ... ثم يقول: ونفى المقدمة الطللية - وهى أكثر المقدمات شيوعا فى صدور القاصد الجاهلية - كان الشاعر يقف عند معاهد صاحبه فيراها آثارا دائرة ، ومعالم دارسة قد بدلت من الحياة موتا ، ومن الحركة سكونا ، ولم يبق فيها سوى النوى والأنفاس والرماد والأعواد والأوتاد ، وتترأى له بإزاء هذا المنظر الموحش مواكب حبه ، وذكريات شبابه ، فيتألم لضياعها ، ويبكى على فقدانها . وفى المقدمة الغزلية أدار الشاعر الحديث حول موضوعين أساسيين الأول : بعد المحبوبة وما خلفه له نأياها من أشجان وأحزان يعيش لها وعليها ، والعودة إلى الماضى ، إلى اللحظات التى يتمتع فيها بقرب المحبوبة منه . والثانى : التقاؤها به ، ومواظمتها له ، وكيف كانت تمنجه وتصيبه بمحبتها ومفاتيح جسدها . ونفى المقدمات التى وصف فيها الظعن أظهر فرعا وجزعا شديدين من الفراق المحتوم المشئوم . وتضطرب نفسه ، ويسيل دمه ، وليس من شك فى أنه لم يفتح العبرات إلا تفجعا على حبه الدائر فى الأيام الماضية " (١٠)

(١٠) مقدمة القصيدة العربية فى الشعر الجاهلى للدكتور حسين عطوان - طبعة

وبعد أن استعرضنا بعض الآراء التى تحدثت عن مقدمة القصيدة فى الشعر الجاهلى فإننا لا نقع فيها إلا على تفسيرات للطلل تناولت جانبين هامين من الجوانب النفسية ، أولهما : أحاسيس العميق بالزمن باعتباره معنى داخلية ، وصيغة تأمل . وثانيهما : ذلك الصراع الحاد بين غريزة الحياة أو حب الحياة وبين غريزة الموت . وقيل أن نتبع هذين الجانبين أقول - بادئ ذى بدء - إن الطلل فى القصيدة الجاهلية كان يعتبر بداية المرحلة الشعرية التى يمر بها الشاعر الجاهلى ، وقد وجد الشعراء فى هذه الأطلال - وهى فى شكلها المتفاد - ما يثير عواطفهم وأحاسيسهم مما جعلهم يحرصون على الوقوف عندها وأمامها باعتبارها قطعة زمنية عزيزة ذابت بين جنباتها أجمل الأيام واندثرت بين بقاياها أغلى الذكريات ، وهى ذكريات المبدأ والشباب .

كان الطلل يخلق جوا شعريا يمنح الشاعر القدرة على القول ، ويمسكه بالمعاصر التى تمكنه من التنفيس عن كل ما تظلم به نفسه ، ويدور فى ذهنه من أنكار وحوادث ، وهذا ما دفع الشعراء إلى الالتزام بها والتقيد بمعانيها والمحافظة على أصولها .

وإذا تتبعنا قصائد الشعر الجاهلى وجدنا أن معظم الشعراء كانوا يستهلون قصائدهم بحديث الأطلال ، ولكننا نجد أيضا قصائد أخرى شذت عن تلك القاعدة وجاء حديث الأطلال داخلها . نجد ذلك عند الشماخ ^(١١) ، ومعاوية بن مالك

(١١) ديوان الشماخ - تحقيق صلاح الدين الهادى طبعة دار المعارف بمصر
ص ١٢٤ ، ٢٤٢ ، ٢٦١ ، ٢٦٢ .

ابن جعفر^(١٢) ، وعبد الله بن عنمة الضبي^(١٣) ، وزهير بن أبي سلمى^(١٤) ، وسزرد
ابن فرار الذبياني^(١٥) ، والمرار بن منقذ^(١٦) ، حيث جاءت أطلاله في البيت
الثالث والخميس . والمخبل السعدي^(١٧) ، وجابر بن جنى التغلبى^(١٨) ، وامرؤ
القيس^(١٩) ، وعنصرة بن شداد^(٢٠) ، وحמיד بن ثور الهلالي^(٢١) ، والحارث بن
حزوة^(٢٢) .

كذلك نرى في أحيان كثيرة أن بعض الجاهليين قد أفردوا قصائد أو قطعاً
من قصائد لأطلال ، كما تجد عند لبيد بن ربيعة^(٢٣) ، وحسان بن ثابت^(٢٤) .
وقد يكون ذلك نتيجة ضياع الجزء الباقي من القصيدة ، وقد يكون نتيجة اكتفاء
الشاعر بهذا الجزء ، لأنه رأى أنه حقق ما يريد من خلال وقوفه وحديثه عن
الأطلال ، وإذا رجعنا إلى تلك القطع أو القصائد التي كلها أطلال لا نشعر

(١٢) المفضليات ص ٣٥٧ .

(١٣) الأسميات - تحقيق أحمد شاکر وعبد السلام هارون طبعة دار المعارف

بمصر ص ٢٢٦ .

(١٤) ديوان زهير - طبعة الدار القومية للطباعة والنشر ١٩٦٤ - ص ١٢٤ ، ١٢٦ .

(١٥) المفضليات ص ٧٥ ، ٧٦ .

(١٦) المفضليات ص ٨٨ .

(١٧) المفضليات ص ١١٣ .

(١٨) المفضليات ص ٢٠٩ .

(١٩) ديوان امرئ القيس تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم - طبعة دارالمعارف

ص ٣٠٠ ، ٣٠١ .

(٢٠) ديوان عنصرة بن شداد تحقيق عبدالمنعم شلبي - طبعة المكتبة التجارية -

ص ١٥٢ .

(٢١) ديوان حميد بن ثور - تحقيق عبدالعزيز الميمنى - طبعة الدار القومية ص ٢٢ .

(٢٢) شرح القصائد السبع الطوال لأبي بكر الأنباري - تحقيق عبدالسلام هارون ص ٤٢٣ .

(٢٣) ديوان لبيد تحقيق الدكتور إحسان عباس ، الكويت سنة ١٩٦٢ ص ١٢٥ ، ١٢٣ ، ١٢٤ ، ١٦٦ .

(٢٤) ديوان حسان بن ثابت تحقيق الدكتور سيد حنفي - طبعة الهيئة العامة للكتاب ص ٢٧٩ ،

بأن شيئاً قد قطع أو بتر .

لقد ارتبطت مظاهر الطلل عند الشعراء بالخراب والافتقار والعفء والوحشة ، فلا يكاد يخلو طلل من هذه الظواهر . يقول سلامة بن جندل (٢٥) :

لِمَنْ طَلَّ مِثْلَ الْكِتَابِ الْمُنْمِقِ خلا عَهْدِهِ بَيْنَ الْحَلِيبِ فَمُطْرِقِ
ويقول المرقش الأكبر (٢٦) :

هَلْ تَعْرِفُ الدَّارَ عَفَا رَسْمَهَا إِلَّا الْأَثَاثَ وَمَبْنَى الْخَيْمِ
ويقول بشر بن أبي خازم (٢٧) :

عَفَتْ مِنْ سَلِيمِي رَأْمَةٌ فَكَثِبَهَا وَشَطَّتْ بِهَا عَنْكَ النُّوَى وَشَعُوبَهَا
ويقول عوف بن الأحوص (٢٨) :

هَدَمَتْ الْحِيَاضُ فَلَمْ يَنْأَدِرْ لِحَوْضٍ مِنْ تَصَاثِبِهِ إِزَارُ

ومن الطبيعي أن يكون الطلل الذي يقف عليه الشاعر مكاناً عفا عليه ،

٢٥) المفضليات ص ١٨١ وانظر نفس المصدر لشعراء آخرين ص ٨٩ ، ٢٣٧، ١٢٢ ،

٢٣٧ ، ٢٥٢، ٢٧٩، ٤٠٧ .

٢٦) المفضليات ٢٢٩ .

٢٧) المفضليات ٢٣٠ .

٢٨) المفضليات ص ١٧٢ ، وانظر في التركيز على العفء والبلى والوحشة والخراب

ديوان أوس بن حجر (طبعة بيروت) ص ٩٤، ٦٢، وديوان حميد بن ثور ص ٨٧، ٣٢،

١١٢، وديوان طرفة بن العبد (طبعة الأنجلو) ص ٢٦، ٦٨، وديوان زهير ص ٨٦، ٥٨، ١٢٦، ١٩٤،

٢٠٦، ٢٠٨، ٢١٩، ٩٣، ٨٢٤، وديوان امرئ القيس ص ٢٧، ١٠٥، ١١٩، ٢٥٥، ٢٩٣، ٣١٢، ٣٣٩ ،

٣٤٥ ، وديوان النابغة (طبعة بيروت) ص ١٩ ، ٣٢ ، ٧٨ ، ٨٨ ، ٨٩ ،

١٧٦ ، ١٨٨ ، ٢٠٧ .

وذهب عنه أصحابه وتركوه ، وبقي مستوحشا قفرا . ولكن مع بداهة هذا الأمر نرى الشاعر يركز على هذه المظاهر ويكررها ، فكأنه يحاول إظهار فعل الدهر كشيء يشمر عو به أكثر من سواه ، وأكثر مما نشعر به نحن من مجرد ذكر الطلل .

التفت الشاعر الجاهلي إلى رسوم الدار والأحياء الباقية الدالة على " حياة كانت " وإلى تشبيهها وتصويرها ، فذكر النوى والأشافي والأوتاد ومرابط الخيل والرماد ... ونحو ذلك من بقايا . يقول الخطيب^(٢٩) :

يا دَارَ هُنْدٍ عَفَّتْ إِلَّا أَثَافِيهَا بين الطَّوِيِّ فَحَارَاتٍ فَوَادِيهَا

ويقول كعب بن زهير^(٣٠) :

فَلَمْ يَبْقَ مِنْهَا غَيْرُ أَسَى مُدْعَذَجٍ وَلَا مِنْ أَثَافِي الدَّارِ إِلَّا طَلِيهَا

ويقول أوس بن حجر مشبها البقايا بالزخارف^(٣١) :

شبهت آيات يقين لها في الأولين زخارفا قشبا

ويشبهها حاتم الطائي بالنمنمة والكتابة^(٣٢) ، وعبيد بن الأبرص بالكتابة^(٣٣) ، وليبيد باللوح والوشم^(٣٤) ، وبالكتب والوشم معا^(٣٥) . ومن

(٢٩) ديوان الخطيب (طبعة بيروت) ص ٢٤٠ .

(٣٠) ديوان كعب (طبعة دار الكتب ١٩٥٠) ص ٢٠٨ وانظر أيضا ديوان

الهذليين ١: ٢٢٧، ٢٢٦ .

(٣١) ديوان أوس بن حجر تحقيق الدكتور محمد يوسف نجم - طبعة بيروت - ص ١ .

(٣٢) ديوان حاتم الطائي ص ٨٠ .

(٣٣) ديوان عبيد بن الأبرص ص ٤١ ، ٦٥ .

(٣٤) ديوان ليبيد ص ١٥٩ .

(٣٥) ديوان ليبيد ص ١٩٦ .

تلك التشبيهات أيضا تشبه الآثار الباقية بمزاحف الحياة أو بلونها ، ومن ذلك يقول بشر بن أبي خازم ^(٣٦) :

لَمَنْ الدِّيارُ غَشِيَتْهَا بِالْأَنْعُمِ تبدو مَعْرِفُها كَلَوْنِ الْأَرْقَمِ

ورغم أننا نرى أن هناك تشابها في وصف بقايا تلك الطلول بين الشعراء ، فمن الواضح أن اهتمام الشاعر بهذه البقايا - وخاصة الأثافي والنوى - يدل على أنه يرى في هذين الأثرين مقاومة للزمن ومقاومة للفناء ، وكأنه يعود بهما إلى عهد " حياة كانت " في هذه الديار ، في نفس الوقت الذي يرى أن الزمان هو الذي أبقاها ، فالشاعر هنا يحاول أن يبرز لنا صورة ماحلة بعد صورة كانت حية ، وهو ينظر إلى الواقع المؤلم فيرى فعل الدهر فيما حوله ، فقيد ذهب كل شيء ، ولم يبق إلا بقايا قليلة متناثرة هنا وهناك .

كان الشاعر يقف خائفا أمام الظلل المسجي يذرف الدموع ، طالبا من رفيقيه البكاء معه ، ومن خلال دموعه تتراءى الأمكنة وبقايا الديار ، تلك البقايا التي يراها الدكتور مطفي ناصف أشبه " بالعظام النخرة المتخلفة عن رفات الميت ، وأشلأ الحياة ، هذه يجدها الشاعر دائما موضوعة أمام عقله حيثما التفت ، ولولا هذه العظام ، ما وجد الشاعر شيئا يتحقق الصيحة أو البكاء أو استيقاف صحبه ، أو التحدث إلى نفسه ، فالموت يجعل الشاعر ينعكس على نفسه بالتأمل " ^(٣٧) .

(٣٦) المغفليات ٣٤٥ .

(٣٧) دراسة في الأدب العربي - طبعة الدار القومية للطباعة والنشر

ص ٢٠١ - ٢٠٢ .

ويعتدل البكاء على الطلل ظاهرة واضحة عند منظم الشعراء ، ذلك لأنه كان تعبيراً منهم عن مدى تأثرهم بالماضى والحاضر معا ، فهم يكونون الطلل لأن شعور الفناء الوحشة طغى على الشعور بالحياة والطمانينة . فرحيل الحبيبة والأهل لم يجعل الطلل خرباً فحسب ، بل خالياً ، والذي خربه هو الزمن ، فانضاف الخراب إلى الخلاء وأصبحا شيئاً واحداً الآن فى الطلل منا أثار حزن الشعراء فبكوا ، ولذا كان البكاء عنصراً هاماً من عناصر الوقوف على الطلل . وأهم ما يميز هذا البكاء هو التردد النفسى عندهم فبعضهم كان يبكى بمجرد وقوفه ، يقول لبيد (٣٨) :

فَعِثْتُ دِيَارَ الْحَيِّ بِالسَّبْعَانِ كَمَا الْبَدْرُ فَالْعَيْنَانِ تَبْتَدِرَانِ
ويقول الأعشى (٣٩) :

مَنْ دِيَارٍ بِالْهَفِيفِ هَضْبِ الْقَلِيبِ فَاصَّ مَاءَ الشُّثُونِ فَيُضِى الْفُرُوبِ
ويقول الشماخ (٤٠)

وَلَمَّا رَأَيْتُ الدَّارَ قَفَرًا تَبَادَرَتْ دُمُوعٌ لِلْيَوْمِ الْمَازِلَاتِ سُرُوقُ
ويقول امرؤ القيس (٤١) :

دِيَارٌ بِهَا الظُّلَمَانُ وَالْعَيْنُ تَعْكُفُ وَقَفْتُ بِهَا تَبْكِي وَدَمْعُكَ يَذْرِفُ

(٣٨) ديوان لبيد ص ١٩٦ .

(٣٩) ديوان الأعشى ص ٢٢٢ .

(٤٠) ديوان الشماخ ص ٢٤٢ وانظر ص ٢٦٢ .

(٤١) ديوان امرؤ القيس ص ٢١٢ .

وبعضهم كان يبكى ثم ينهى نفسه عن البكاء ، أو يتعجب من أنه
يبكى وذلك مثلما فعل المرقش الأصغر في قوله (٤٢) :

أَمِنْ دِيَارٍ تَعْفَى رَسْمَهَا عَيْنَكَ مِنْ رَسْمِهَا بِجُومٍ
وكما فعل الحطيثة في قوله (٤٣) :

أَمِنْ رَسْمِ دَارٍ مَرِيعٍ وَمَصِيفٍ لِعَيْنِكَ مِنْ مَاءِ الشُّثُونِ وَكَيْفٍ

وبعضهم كان يبكى ولكنه يتعرض لجزر أصحابه ، من ذلك قول طرفه (٤٤) :

وَقَوْفًا بِهَا صَحْبَى عَلَى مَطِيهِمْ يَقُولُونَ لَا تَهْلِكْ أَسَىً وَتَجَلَّدِ

وبعضهم كان يدعو من معهم إلى المشاركة في البكاء ، كما فعل
امرؤ القيس في معلقته (٤٥) :

قِفَا نَبكِ مِنْ ذِكْرَى حَبِيبٍ وَمَنْزَلٍ بِسِقَطِ اللَّوَى بَيْنَ الدَّخُولِ فَحَوْمَلِ

ونجد لعنترة موقفا خاصا من البكاء ، فهو يطلب من نفسه أيضا الوقوف
على الأطلال لعله يحقق ذلك ، يقول (٤٦) :

(٤٢) المفضليات ٢٤٧ .

(٤٣) ديوان الحطيثة ٨٠ ، ٢٢٦ . وانظر ديوان حاتم الطائي بتحقيق الدكتور
عادل سليمان جمال (مطبعة المدنى بالقاهرة) ص ٤٦ وديوان عبيد بن الأبرص
ص ١١٦ ، ١٢٣ .

(٤٤) ديوان طرفه ص ٥ وديوان امرؤ القيس ص ٩ وديوان ليبيد ص ٩٧ وديوان عنتره ص ١٤٠ .

(٤٥) ديوان امرؤ القيس ٨ ، ٨٩ ، ١١٤ .

(٤٦) ديوان عنتره ص ١٠١ .

رَفَّ بِالْمَنَازِلِ إِنَّ شَجَّتْكَ رُبُوعَهَا قَلْعَلْ عَيْنَكَ تَسْهَلْ دُمُوعَهَا

كل هذا يعتمد داخل الشاعر ، فهو نفسه يتمثل في الواقع الظاهر ، في الطلل الخرب الذي يتكون من أحجار وأثافي ، ومدى استحقاق هذه البقايا للبكاء ، والماضي المائل في هذه الأحجار أيضا معا . الماضي الموعود الذي أعادته الذكرى ، وأفناه الزمان .

فالشاعر في حال وعيه لا يجد أمامه سوى أحجار وبقايا لا تستحق البكاء ، ولكن عندما يتلشى الواقع ويتحول الطلل إلى أنثر وذكرى ، تنهمر العبرات ، وعندما تفيض بما يكفى الشاعر ويربحه نجده يعود إلى صحوه فيزجر نفسه وبخامة إذا كان متقدما في السن . يزجر نفسه ويقول لها كيف تبكين على أحجار .. ثم نراه يعود إلى ذكريات الماضي من خلال فعل الزمن بتلك الديار التي أصبحت خرابا ، وقد لا يكسبون ذلك لمجرد رؤيته الطلل صدفة ، بل لأنه يريد أن يراه ، ويريد أن يضع نفسه هذا الموضع . وليس أدل على ذلك سوى الدعوة المستمرة من الشعراء للوقوف على الأطلال وعلى الديار ثم بالمرج عليها وطلب ذلك وتكراره ^(٤٧) ، فإذا ما وصل الشاعر إلى الطلل مرة أخرى أو إلى طلل آخر عاد إلى البكاء .. وهذا ما أدى إلى تعدد الأطلال .

(٤٧) انظر ديوان الشماخ ص ٣٠٧ ، وديوان أمري القيس ص ١٠٥ ، ١١٤ ، وهو هنا يتمثل بقول ابن خزام :

عوجا على الطلل المحيل لعلنا نبكى الديار كما بكى ابن خزام

كان الشاعر وهو يقف أمام الأطلال يحاول اثبات ذاته ووجوده المبعثر نسي هذه الصحراء المترامية الأطراف ، ذلك لأن الطلل عنده قطعة من الحياة التي تهرم كلما مضى منها جزء ، وحيث إنه لم يستطع أن يبرد هذا الجزء مهما حاول فإن البكاء هنا يعنى البكاء على الحياة نفسها . وهكذا كان البكاء على الحياة يمثل نقطة الانطلاق فى تفكير الشاعر الجاهلى ، فبينما ينظر إلى الطلل الذى أمامه نجده يربط بين فكرة الحياة والموت .

إن كثرة الأسئلة التى كان الشعراء يوجهونها فى بداية وقوفهم على الأطلال تمثل من حيث الصياغة شكلا منهجيا واحدا عندهم ، فهم عندما يألون : لم طلل ؟ ، ولمن الديار ؟ ، وأتعرف رسم الدار ؟ ، وأمن آل هند ؟ و أمن آل مـ ؟ ، و أمن آل أسماء ؟ فكل ذلك يمثل التساؤل الفاضح الذى كان يدور فى خلد الشاعر من خلال موجات الشاعر المتدافقة والاحساس بالغربة والانزعاج التى كانت تقف أمامه وهو يتلمس قسوة الطبيعة والدمر .

لم يكن الوقوف على الأطلال والبكاء أمامها وقفة تأملية عابرة ، أو نظرة ذاتية ضيقة يعانىها الشاعر بصورة منفردة ، وإنما كان كالظل الحزين الذى يلسف نفس الشاعر وهو يقترب من هذه الأطلال وقد فرض هذا الظل شعور الجماعة التى ينتمى إليها بالحرمان من الوطن والمكان .

إن الشاعر الجاهلى كان يروع بفكرة الحياة الزاهية ، إنه يمحو على

الشعور المستمر بأن جانباً من العمر قد ولى ، وأجال بصره فيما حوله
فبدا له أن الجميع مرعى الزمان ، فديار الأوبة تسمى خلا ، ويخفى
عليها الزمان كما يقول النابغة ^(٤٨) :

أَمْسَتْ خَلَاً ، وَأَمْسَى أَهْلُهَا احْتَمَلُوا أَخْنَى عَلَيْهَا الَّذِي أَخْنَى عَلَى لُبْدٍ

وحتى قصور الملوك العظيمة الرائعة أمت على مر الزمان يباباً ،
يقول الأعشى فى واحد منها ^(٤٩) :

يا مَنْ يَرَى رِيْمَانَ أَمْسَ	سِ خَاوِيًا خَرِيًّا كَعَابُهُ
أَمْسَ الثَّمَالِبُ أَهْلَكُهُ	بَعْدَ الَّذِينَ هُمُو مَا بَنَهُ
فَخَوَى وَمَا مِنْ ذِي شَبَا	بِ دَائِمٍ أَبَدًا شَبَابُهُ

وهكذا تأمل الشعراء وجودهم وأحسوا أحاساً قويا بالموت وحتم وقوعه ،
ورأوا رأى العين تلاعب القدر بهم وتقلب مرفه عليهم فى هذه الحياة
القائية .

تلك هى الحقيقة الأليمة المروعة التى صدر عنها الشعراء الجاهليون .
وحاكوا من خيوطها نسج تجربتهم الشريرة .

أحس الشاعر الجاهلى بطابع الإلشقاء من الزمن ، فتحدث عن صروف الدهر

(٤٨) ديوان النابغة ص ١٩ .

(٤٩) ديوان الأعشى ص ٣٢٥ .

وآفة الأيام ، " وإذا كان لكل لغة بناؤها التصورى الخاص الذى هو جزء من التكوين العقلى لأصحاب هذه اللغة ، فإن اللغة العربية كانت تميل إلى استخدام كلمة الزمان ومرادفاتها فى مجالات تتمثل بالآلام والفناء والمثقة والتقصان مما يعبر عن الفلسفة العربية الحقيقية حينئذ ، لأن لغة الشعب هى روحه ، وروحه هى لغته (٥٠) .

ليس الزمن الذى يحدثنا عنه الشعراء الجاهليون والذى يملأ صفحات دواوينهم هو كر الأيام والليالى ، وإنما هو ذلك الاحساس بمأساة المصير الذى يؤول إليه كل شئ على إيقاع خطأ الزمن ؛ فتشديد على النفس البشرية التواقة إلى الخلود والمتعلقة بما هو أبدي ، أن تشعر بأن وجودها إلى انتهاء ، وأن الموت من صميم كينونتها ووجودها الذى لا تملك غيره ، وأن الموت هو حادى رحلة الانسان الذى يتعرض وجوده إلى الفقد فى كل لحظة ، وإن أخطأنا بهم المنية - الذى لا يخيب فى يومنا هذا - فإن لنا فى غد معه لقاء ، يقول حليم (٥١) :

فَيَلْتَقِي الْمَوْتُ فِي الْيَوْمِ فاعْلَمَنَّ
بِأَنَّكَ رَهْنٌ أَنْ تَلْقَاهُ غَدًا

إن شعور الجاهليين بتقلب الزمان وقصر الحياة ، وخوفهم من فكرة الموت حقيقة تامة المدق ، عظيمة الأهمية فى تحديد فلسفتهم نحو الحياة

(٥٠) فى فلمة الحفارة الاسلامية للدكتور غفت الخوقاوى - طبعة بيروت ١٩٨٠ ص ٥٢١ ، ٢٥٢ .

(٥١) ديوان حليم بتحقيق عبد العزيز الميمنى - طبعة الدار القومية للطباعة والنشر ، سنة ١٩٦٥ - ص ٤١ .

كلها ونحو ملوكهم العملي فيها ونبياغة فنهم الشعرى بأكمله فلى
مختلف موضوعاته ، وليس فى النيب الاقتتاحى وحده .

كان الشاعر وهو واقف أمام الطلل يتأرجح بين ماضيه الذى يحمله وبين
مستقبله الذى ينتظره ويرنو اليه . الماضى لا أمل فى رجوعه ، وقد يئس
الشاعر من مخاطبته ، فلا بد إذن أن يلتفت إلى المستقبل الذى كان يتمثل
فى رحلة الصحراء ، وفى هذه الرحلة لا يحرك الشاعر إلا أمرا واحدا
يتمثل فى محاولة الاهتداء إلى نفسه من جديد بعد أن كاد يفقدنا تماما
فى الماضى أو فى الطلل .

إن مواجهة لحظة المدم لا تتأنى إلا بفعل ايجابى يحاول فيه الشاعر
الانكفاء على ذاته بطريقة يسمى بها إلى اجتماع نفسه من ماضيها
الذى يكاد يكون قد درس ، وطرحها بعيدا فى مستقبل ما يزال فيما وراء
ذات الشاعر ، فهو يفادر الطلل قاصدا إلى وجهة من وجوة الحياة لعلها
من قصائد المدح التقليدية ، ولكن النغمة الحزينة التى رافقت وقوف
الشاعر على الطلل وإن كانت تختفى مؤقتا فى رحلة الصحراء المنبسطة ،
وفى الانصراف إلى المستقبل والاحتفال بشئون الحياة ، والذى يكاد لحظة
أن يغفل فيها الشاعر عن نفسه أو عن حقيقة الزمن الذى عرفه
حق المعرفة ، ولطالما كابد منها ، وشكا من تباريحها ، فلا يصد
من أن تعود فتعرض نفسها من جديد على الشاعر فى القصيدة نفسها أو فى
قصيدة أخرى .

وإذا كان الشاعر الجاهلي قد رمز لليأس بالطلل فإنه رمز برحلة المحراء للأمل والجمال ، وإذا كان قد عبر في الطلل عن شخص الحياة التي مآلها الموت ، فإنه عبر برحلة المحراء عن الأمل في الحياة وعن العمل من أجل تحقيق هذا الأمل ، ولهذا حرص الشاعر على أن يصل بين الطلل والذكريات العاطفية والغزل ، ويمل بينها جميعا وبين وصفه لجمانة الذي يتخذ من الحديث عن سرعه وقوته وسيلة إلى الخلاص النفسى من هذا الواقع المؤلم الذى كانت تطبق عليه مشاعر حزينة نابضة من إحساسه بالمفارقة بين الحياة والموت . ولما كان هذا الجمال يمثل لديه وسيلة الخلاص النفسى الذى ينقله بعيدا عن واقعه إلى واقع جديد متميز ، فإنه يحرص على وصفه بالقوة والبرعة ، وهما صفتان قادرتان على تحقيق أمله فى الانتصار على واقعه .

يقول سويد بن أبي كاهل البشكري (٥٢):

فَرَكِبْنَاهَا عَلَى مَجْهُولِهَا	يَحْلَابِ الْأَرْضِ فِيمِثَّ شَجَعُ
كَالْمَغَالِي عَارِفَاتٍ لِلشُّرَى	مُنْفَاتٍ لَمْ تَوْشَمَ بِالنَّسَعِ
فَتَرَاهَا عُمْنًا مُنْعَلَمَةً	بِنَعَالِ الْقَيْمَنِ يَكْفِيهَا الْوَقْعُ
يَدْرَعْنَ اللَّيْلَ يَهْوِيَنَّ بِنَا	كَهَوَى الْكُدْرِ صَبْحَنَ الشَّرْعُ

ويحف المرقش الأخضر حصانه فيقول (٥٣) :

غَدُونًا بِصَافٍ كَالْعَيْبِ مُجَلِّلٍ طَوِينَاهُ حِينًا فَهُوَ شَرْبُ مَلُوحٍ
أَسِيلٌ نَزِيلٌ لَيْسَ فِيهِ مَعَابَةٌ كَمَيْتٌ كُلُّونِ الْحَرَفِ أَرْجُلُ أَقْرَحٍ
عَلَى مِثْلِهِ أَتَى النَّدَى مُخَايَلًا وَأَغْمَزُ سِرًّا : أَيُّ أَمْرِي أَرْبَحُ
وَيَسْبِقُ مَطْرُودًا وَيَلْحَقُ طَارِدًا وَيَخْرُجُ مِنْ غَمِّ الْمَضِيقِ وَيَجْرَحُ

وكذلك الناقة في هذه الرحلة تبدو رمزا للإرادة الإنسانية التي تقتحم الأحوال من أجل تحقيق الآمال ، ولهذا يحشد الشاعر أيضا كل صفات القوة والقدر على التحمل ، وكأنه يتحدث عن ذاته . ولقد أفاض الشعراء في تصوير الناقة ، فهي قوية طيبة ، تتحمل مناق الطريق وتصبر على تقلبات الطبيعة ، وهذه الناقة القوية التي تتبدى في الرحلة هي إرادة الشاعر في عنفوانها ، يقول المخبيل السدي وامفسا ناقتة (٥٤) :

تَذَرُ الْحَمَى فُلُقًا إِذَا عَمَفَتْ وَجَرَى بِحَدِّ سَرَابِهَا الْأَكْمُ
لَحِقَتْ لَهَا عَجَزٌ مُؤَسَّدَةٌ عَقَدَ الْفَقَارُ وَكَاهِلٌ مُخْضَمٌ

(٥٣) الفضليات ص ٢٤٢ شرب : فامر - ملوح : الشديد الضمر - المرف : صبغ أحمر - أرجل : محجل بثلاث قوائم مطلق بواحدة - أقرح : بياض في الوجه - الندى : المجلس - يجرح : يكسب ويصيده .

(٥٤) الفضليات ص ١١٦ - ١١٧ تذر : تكسر - عمفت : اشدتعدوها - لحقت لها عجز : لم يخنها عجزها - الكناس : مأوى الظبي - الفائلة : الدرة البريئة - تريكة السيل : المخرة التي يأتي بها السيل - الرضم : الحجارة .

وَقَوَائِمٌ عُوجٌ كَأَغْمِدَةٍ إِلَى بَنِيانٍ عُولِيٍّ فَوْقَهَا لَحْمٌ
وَإِذَا رَفَعْتَ السُّوْطَ أَفْزَعَهَا تَحْتَ الْفُلُوعِ مَرْوَعٌ شَهْمٌ
وَتَسُدُّ حَادِيَهَا رِيْدَى خُصْلٍ عَقِمَتْ فَنَاعِمٌ نَبْتُهُ الْعَقْمُ
وَتَقِيلُ فِي ظِلِّ الْخُبْرَاءِ كَمَا يَفْشَى كِنَاسُ الْفَالِقِ الرَّثْمُ
كَتْرِيكَةِ السَّيْلِ الَّتِي تَرَكَّتْ بِشَقَا الْمَسِيلِ وَدُونَهَا الرَّفْمُ

ويقول ثعلبة بن صعيث المازني (٥٥) :

وَإِذَا خَلِيلُكَ لَمْ يَدُمْ لَكَ وَطْئُهُ فَاقْطَعْ لِبَانَتَهُ بِحَرْفٍ ضَامِرٍ
وَجَنَاءٌ مُجْفَرَةٌ الْفُلُوعِ رَجِيلِيَّةٌ وَلَقَى الْهَوَاجِرَ ذَاتِ خُلُقٍ حَادِرٍ
تَفْجَى إِذَا دَقَّ الْمَطْيُ كَانَهَا قَدْنُ ابْنِ حِمَّةٍ شَادَهُ بِالْأَجْرِ

كذلك نرى أن الناقة الطليح التي تظهر في الرحلة هي إرادة الشاعر التي تضامنت في درب الحياة ، يقول الأعشى (٥٦) :

وَتَرَاهَا تَشْكُو إِلَى وَقْدٍ آ لَتٌ طَلِيحًا تَحْدَى مَدِيرَ النَّعَالِ
لَا تَشْكِي إِلَيَّ مِنْ أَلَمِ النَّسَمِ وَلَا مِنْ حَفَى وَلَا مِنْ كِلَالِ

(٥٥) المغنليات ص ١٢٩ ، الحرف : الناقة الماضية - وجناء : طليعة -

المجفرة : السطيمة الوسط - ولقى : سريعة - الحادر : الممتملي - دق

المطى : ضمير لطول السفر - القون : القصر .

(٥٦) ديوان الأعشى ص ٢٠ .

لا تشكوى إلى وانتجى الأسود ، أهل الندى وأهل الفمكال

فنجذ أن إرادة الشاعر التى تعبت من رحلة الحياة (الناقة التى تشكو)

قد وجدت طلبتها عند الأسود بن المنذر اللخمى .

وقبل أن أختتم حديثى عن الطلل أقول إن هناك ظاهرة أخرى تكررت فى

ذكر الطلل ، تلك هى وصف صنوف الحيوان التى كنت هذه الأطلال بعد

رحيل أهلها عنها وخرابها ، وهنا يركز الشاعر الجاهلى على شيئين :

أولهما وجود هذه الحيوانات كبديل لساكنها الذين رحلوا ، وليس مجرد

حيوان صحراوى ، فهى تحل محل من كانوا فيها ، وكأن هذا الحيوان هو

الشيء الحى الوحيد فى مظاهر الطلل ، وثانيهما تصويرها وهى ترتع آمنة

(٥٧)

هى وصغارها ، يقول طرفة بن العبد :

حاسبى رسم وقفت به لو أطيع النفس لم أرمه

لا أرى إلا النعام به كالإماء أشرفت حزمه

ونلاحظ تعبيره " لا أرى إلا " فكأن مظهر الحياة الوحيد فى هذا الطلل

هو هذا النعام المتجول داخله ، والذى يصوره الشاعر ، فهو لا ينظر

إلى آثاره أو بقايا سقط عليها الزمن ، بل ينظر الآن إلى ما حل بالطلل

(٥٨)

من حياة بعد رحيل أهلها ، ويقول النابغة :

(٥٧) ديوان طرفة ص ٢٠ .

(٥٨) ديوان النابغة ص ٦٢ .

بها كل ذيئال وخنساء ترعوى إلى كل رجافٍ من الرمل قارده

فيمف حلول الثور والبقرة الوحشيين محل أهلها ، ويقول عنثرة (٥٩) :

يا مرج الآرام فى وادى الحمى هل فيك ذو شجن يروح ويغدى

ويقول النابغة فى موضع آخر فى الطلل (٦٠) :

تأبّد لا ترى إلا صوّاراً	بمرقومٍ عليه العهد خال
تعارفها السّوّارى والغوّادى	وما تذرّى الرياح من الرمال
أثيث نبتة جمده ترأه	به عوذ المطّير والمثالى
يكشّفن الآلاء مزيّنات	بغاب رديئة الحّم الطوال
كان كشوحهن مبطنات	الى فوق الكموب يزود خال
فلما أن رأيت الدار قفّرا	وخالف بال أهل الدار بالى
نهضت إلى عذافرة مموت	مذكرة تجلّ عمّن الكلال

فهو يصور الطلل وحاله التى عليها الآن ، التأبّد بالوحش ، نمو
النبات ، الأمطار ، تعارف الرياح رمالها ، جولان أولاد الوحش وتمويرها

(٥٩) ديوان عنثرة ص ٦٨ .

(٦٠) ديوان النابغة ص ٦٢ .

وهي تأكل الشجر ، خلو الدار من أهلها الظالمين ، ونرى أن الشيء الوحيد
الحى المتحرك داخل هذا الظل المتقفر هو الحيوان الذى يصوره الشاعر
متجولا راتعا آمنا . ويعبر النابغة أيضا عن هذا التجول بقوله (٦١)

عَدْتُ بِهَا حَيًّا كَرَامًا فَبَدَلْتُ	خَنَاطِيلَ آجَالِ النِّعَامِ الْجَوَافِلِ
تَرَى كُلَّ ذِيَالٍ يُعَارِضُ رَبْرَبًا	عَلَى كُلِّ رَجَافٍ مِنَ الرَّمْلِ هَائِلِ
يُثِيرُنَ الْحَمَى حَتَّى يُبَاشِرْنَ بَرْدَهُ	إِذَا الشَّمْسُ مَجَتْ رَيْبًا بِالْكَلاَكِلِ

فنرى الصورة نفسها : تصوير الحيوان ضمن وصف الظل وما حل به ،
وبيان أن هذا الحيوان حل محل الأهل ، ويقول المخيل السعدي بعد
الحدث عن الظل (٦٢) :

تَقَرُّوْا بِهَا الْبَقَرُ الْمَارِبُ وَآخُ	تَلَطَّطَتْ بِهَا الْأَرَامُ وَالْأُدُمُ
وَكُنَّ أَطْلَاءَ الْجَاذِرِ وَالْـ	سِنْزَلَانِ حَوْلَ رُسُومِهَا الْبَهْمِ
وَلَقَدْ تَحَلَّ بِهَا الرِّبَابُ لَهَا	سَلَفٌ يَفْلُ عُدُوْهَا فَخَمُ

فنرى التفصيل فى ذكر الحيوان وأنواعه ورتوعه آمنا ، ثم الانتقال إلى
قوله : " ولقد تحل بها ... " ليدل على حلول الحيوان بها محل الإنسان .

(٦١) ديوان النابغة ص ١٧٦ .

(٦٢) المفصليات ١١٤ ، وانظر فى هذا الغرض أيضا : المفصليات ص ٢٠٤ ، ٢٤١ ، ٤٠٥ ،

٤١٢ ، ٤١٣ وديوان زهير ص ٥٧ ، ٥٩ ، ٢٨٢ وديوان لبيد ص ٩٦ ، ٩٧ ، ١٢٤ ، ٢٠٦ .

إن صورة العدم التى يرمز إليها الظلل تقف جنباً إلى جنب مع صورة الحياة النامية المزدهرة التى تتراءى من خلال حركة الرياح ، ونزول المطر ، وعودة النبات من جديد ، والحيوانات التى مكنتها الحياة من انجاب هذه الذرية الناهضة بالحياة والحركة من الظباء والنعام والبقسمر .
إن هاتين العورتين اللتين تبدوان على طرفى نقيض تعكسان ما فى نفس الشاعر من صراع بين الموت وبين الحياة .

كان ذكر الحيوانات فى المقدمة الطللية وحرص الشعراء على ذلك يرمز إلى الشعور باستمرار الحياة وبعث الأمل فى نفس الشاعر لا اليأس مما جعله يتمسك بهذه الحياة ويتأفف رحلته أو مسيرته فى هذه المحراء المترامية الأطراف ، تلك الرحلة التى كانت بالنسبة للشاعر أملاً وعملاً أيضاً ، فهو كان يريد أن يخرج من وحدته ، ويفر من غربته إلى عالم أوسع وأرحب ، يحدوه الأمل فى أن يعيش حياة أسعد وأجمل .



UNIVERSITY COLLEGE FOR GIRLS
ANNUAL REVIEW

AIN SHAMS UNIVERSITY

ARTS SECTION

VOLUME : 16

Part 2

1991



1- Dr FADIA Abd El-Aziz Hafez

1-21

Doute et anxiété de Berthe(héroïne du planétarium).

2- Dr FADIA Abd El-Aziz Hafez

Ces cierges qu'on éteint:Nora - Violaine - Anne

22-100

(Héroïnes d'Ibsen , de Claudel et de Sagan).

3- Dr Mona H. Mones The Image of Egypt in

101-231

Bimbshi Mcpherson : A Life in Egypt (1983)

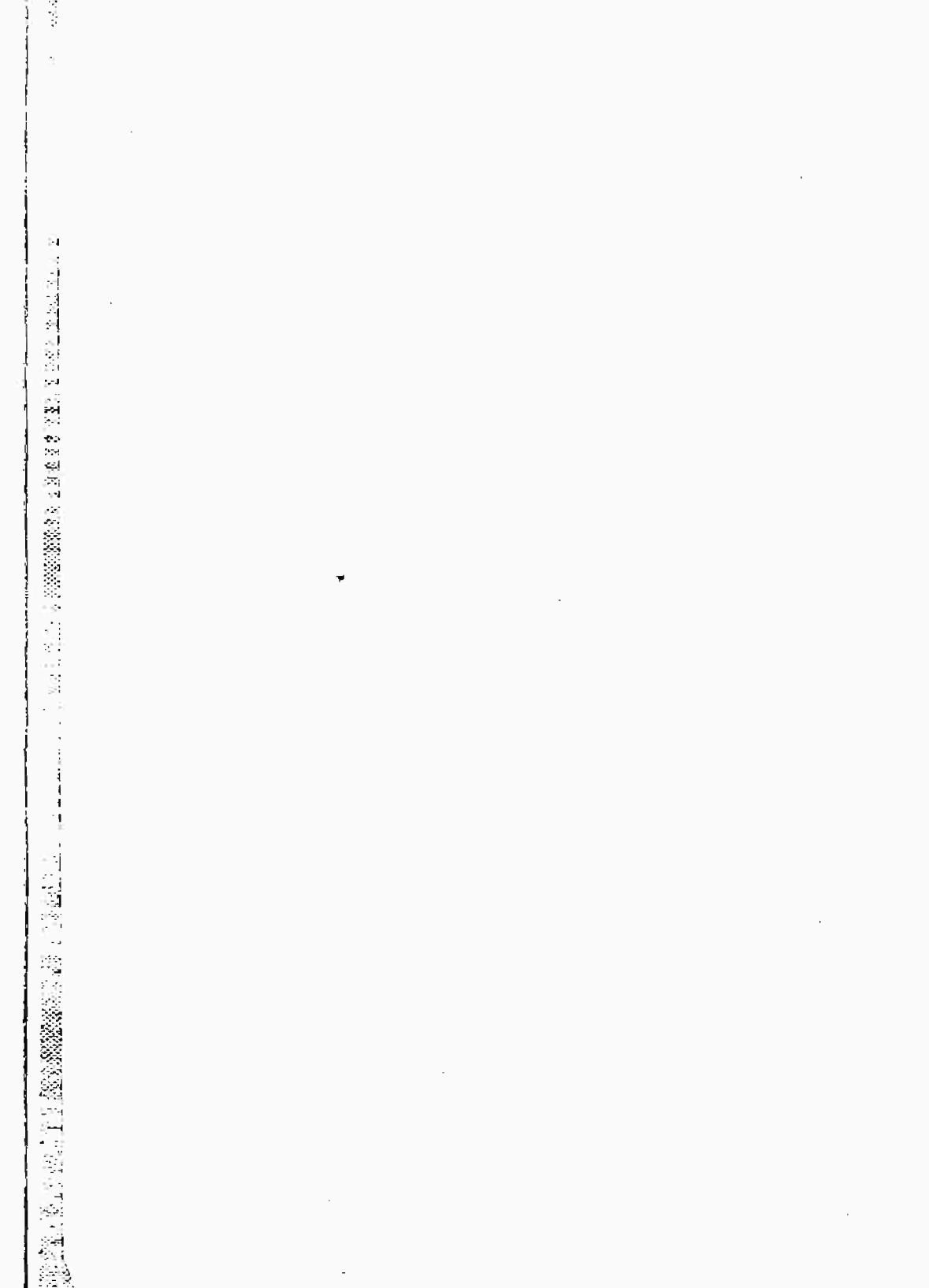




FADIA ABDEL-AZIZ HAFEZ

Maître de Conférence
Faculté de Jeunes Filles
Université Ain-Chams

Doute et Anxiété de Berthe
(héroïne du Planétarium)



Dans le Planctarium, le personnage de Berthe gémit sur sa solitude et son inquiétude. En vérité une foule lui fait cortège à travers les âges. Et dans cette foule, le cynique voisine avec le pur, l'être généreux avec l'homme implacable.

" Telle qu'elle nous est présentée, notre vie est trop lourde, souligne Freud, elle nous inflige trop de peines, trop de déceptions, de tâches insolubles " (1)

La solitude, la maladie, les paradis artificiels, le dandysme, les tranquillisants et les stupéfiants... autant de fuites auxquelles l'homme a recours, lorsqu'il veut tourner le dos à ses peines et échapper à ses tourments, sont insalubres.

Au fond, ces échappatoires ne sont que faux-fuyants. Le mal poins^tte et rejaillit, parfois le mal resurgit plus grave encore par l'usure du corps, et dans le cas des stupéfiants, par la nouvelle dépendance qu'ils infligent. Aussi, pour se débarrasser de leur angoisse de tout temps, les personnes altérées ont-elles pensé à s'abriter dans le décès, l'ultime évasion.

Certaines ères, ont vu des vagues de suicide, comme ce fut le cas au 16^e siècle, au 19^e siècle, après la parution de Werther et dans certains cercles intellectuels, après la première guerre mondiale. Toutefois, une telle issue ne se présente pas sans équivoque. Hamelt s'interroge devant le mystère de la mort où il craint de rencontrer à nouveau la vie : " Mourir, dormir?;.. rêver peut-être "

A un certain niveau de détachement, il semble aussi ridicule de mourir que de vivre. Dans ce sens, Jacques Rigaud^{la} déclame : " La vie ne vaut pas qu'on se donne la peine de quitter ". Toutefois, il finit par se donner la mort. Inutile de rappeler cette vérité bien connue : tous les livres saints maudissent le suicide.

Le caractère dominant de Berthe est l'anxiété légère et flottante.

Dans le Planctarium éclate un doute, une tension et une angoisse que la maîtrise du style rend plus tragique encore.

(1) Freud : Malaise dans la civilisation, P.U. P. Paris, P.B.

Commençons par voir la définition de l'angoisse; puisée dans le dictionnaire : angustia, resserrement. C'est un malaise physique et psychique né du sentiment de l'imminence d'un danger caractérisé par une crainte profonde et diffuse, qui peut aller de l'inquiétude à la panique et par des sensations pénibles de resserrement épigastrique du larynx.

L'angoisse a plusieurs formes .¹ L'une de ses formes, souligne Freud, nous met en présence d'une énigme : nous perdons entièrement de vue les rapports existant entre l'angoisse et le danger menaçant. Le mystère de l'angoisse en fait le point sur lequel convergent les questions les plus diverses et les plus importantes, une énigme dont la solution devrait projeter des flots de lumière sur toute notre vie psychique².

Berthe, nous l'avons dit, est habitée au fond par une inquiétude, un trouble, une désharmonie, une crainte d'une éventualité extérieure. Pour connaître la genèse de l'angoisse de Berthe, remontons à son enfance...

Un jour, quand Berthe était encore enfant, on remarqua dans les environs de la lande paternelle, les traces de grands pieds nus.

On ne tarda pas à découvrir un chien tué, au museau sanglant. Un silence suffoquant et une fausse quiétude régnèrent sur la région. Rien ne parut sur la surface. Toutefois, l'anxiété étreignait les cœurs, "chacun se tait dissimulant sa peur" (1).

Bientôt, un domestique s'éclipssa. Au bout de quelques jours, on le trouva au bois suspendu à une branche, son corps mutilé, garni d'énormes flèches.

L'atmosphère fut imprégnée de peur et d'inquiétude. D'autre part, certains contes sur les Peaux-rouges dévorés dans l'enfance, ont eu une mauvaise influence sur Berthe, gamine. Ces contes, entre autres "ont creusé en elle, comme l'eau creuse dans le calcaire tendre, un lit, un sillon resté vide pendant longtemps" (2)

(1) Le Planétarium, P.176

(2) op. cit., P 448.

La romancière évite les techniques de l'analyse psychologique conventionnelle. Si elle ne condescend pas à recourir, elle s'appuie sur les figures de style. Elle va peindre... tout en nous faisant sentir et imaginer ... Ce "lit" constitue la toile de fond et l'aliment de base d'une angoisse sans âge. A présent, vieillie, Berthe sent "cette même frayeur d'autrefois, sa frayeur d'enfant"(1), s'émettre entre les berges du sillon, "épousant leurs contours, prenant leur forme"(2).

Entre temps, les troubles grandissaient avec Berthe, car "on ne guérit jamais de son enfance" (3), comme le dit Léon Paul Fargus.

Arrêtons-nous un moment à ce "sillon" creusé dès l'enfance de son âme.

Les psychologues disent que les troubles qui envahissent l'âme de l'enfant s'amplifient. L'anxiété acquise dans l'enfance grossit la réalité du danger. Ainsi, une disposition mentale a été créée. En général, les troubles prennent trop de poids dans les fragiles coeurs, en voie de formation, si on ne veille pas à les soigner, voire à en extirper la cause.

En principe, il faut tout traiter dans les cas des enfants dans la lumière. Il faut se méfier de fuir le problème, en feignant de tout ignorer. Hélas! ce fut le cas de l'héroïne, puisqu'un silence suffoquant, et une fausse quiétude régnèrent sur la région au temps du crime. Cependant l'anxiété tourmentait les gens.

Or, au lieu d'affronter le problème, on ne discuta rien avec la petite Berthe, on ne chercha point à apaiser son tumulte intérieur. On se contenta de parader une fausse quiétude.

Et la peur grandissait de jour en jour, dans l'âme de la fillette. Hélas! cette anxiété nourrie dans l'enfance, est devenue un état habituel. Ainsi, à la longue, l'inquiétude fait corps avec la pensée et avec les sentiments. Elle subsiste dans notre sein et se réveille, géante à la plus simple difficulté qu'on cherche à surmonter.

(1) Op. cit. P.179

(2) Op. cit. p.179

(3) Maria Le Hardouin - Editions Universitaires, Paris.1956, 127 pp. Chap.2 - L'enfance - Le milieu familial P.12

En d'autres termes, à force de se répéter, l'association jusque là inconnue et d'abord accidentelle, s'ancre dans l'âme, et on finit par s'inquiéter de tout.

Berthe s'inquiétait de tout, par exemple lorsque l'incident de la porte arriva, l'idée d'astiquer la porte et d'assortir la poignée, la dominait d'une manière malade ! Elle se sentait dans une impasse.

Le malheur, c'est qu'elle bousculait dans ce cercle vicieux les ouvriers chargés d'amener la porte " Nous sommes poussés le long d'un étroit et obscur couloir sans issue, se plaignent - ils, nous allons piétiner sans fin, enfermés avec elle dans ce labyrinthe sombre et clos, tournant en rond " (1)

Les ouvriers s'irritaient, de plus en plus à cause de sa manie. Le décorateur en pleurait Elle agitait tout pour un rien. " Imbecilité " (2), expliquaient les uns, " Obsession " (3), disons - nous.

Cette dame a subi d'atroces douleurs le décès des personnes qui lui étaient chers, de son époux Dans le temps elle a subi des dépressions nerveuses. A présent, elle se

1) Le Planétarium, P. 30.

2) Op. cit., P. 31.

3) Op. cit., P. 8.

rend compte que sa fin est proche Ses forces déclinent
Toute son anxiété se concentre sur les "trous". Il faut
dompter "quelque chose de très fort, d'indestructible,
d'intolérable" (1)....., l'obsession. Ce mal la ravage.
C'est que la marche de l'obsession est foudroyante. Aussi
Freud nous prévient - il de son influence, à maintes reprises
dans ses écrits.

Berthe avait fait cette erreur de proposer à la légère à
son neveu son appartement. Cette aventure périlleuse où elle
s'est embarquée, l'expose au chantage qui va provoquer son
malheur

Cependant, l'héroïne se sent peignée par l'indélicatesse
et le manque de tact de son neveu, Alain pour qui elle a été
une mère débordante de tendresse. Ce fils ingrat sera prêt
bientôt, à l'amener au bord de la folie en parsemant le trouble
et l'angoisse infernale dans sa vie. A présent, ce méchant
neveu livre sa tante à ses amis. Il en fait la risée de l'en-
tourage ! Il allègue qu'elle est insensible et indélicate.
Il livre aux amis tous les ridicules de sa tante. Ses amis
sont tous là "aux aguets". Ils attendent les anecdotes
de tante Berthe pour en rire aux éclats..... Et Alain de se
lancer sans décence dans ses racontards odieux..... "Oh,

1) Op. cit., P. 28.

écoutez , il faut que je vous raconte , c'est à mourir de rire
ma tante , quel numéro" 1

Le Planétarium illustre le mot de Stendhal " le génie du soupçon est venu au monde " . En fait, le soupçon et le doute altèrent Berthe . Le doute qui est l'une des maladies les plus destructives de notre siècle , trouble sa paix intérieure .

Son doute se manifeste aussi bien sur le plan spirituel que sur le plan matériel . Sur le plan matériel, elle doute entre autres , de la présence des " trous " et des taches au mur Sur le plan moral, elle soupçonne son entourage et particulièrement son frère^{qⁱ} devient arriviste et odieux à ses yeux Elle sent qu'il est complice du cynisme de son fils , bien qu'il garde encore des dehors tendres et complaisants .

Quant au jeune ingrat , il lui devient tout à fait suspect . Hélas ! Depuis quelque temps , elle ne reconnaît plus Alain " cet étranger , cet inconnu à la face de vil intrigant " 2

Justifions cette méfiance récente On a passé un coup de fil à la pauvre dame , soit - disant de son gérant . Celui - ci lui a signalé que son appartement est trop vaste pour elle Elle y a discerné la voix d'Alain . Désormais , elle soupçonne

1) op. cit. P. 21 .

2) op. cit. P. 260 .

ce jeune homme inhumain qui " s'acharne sur une pauvre vieille femme sans défense ." (1) Le doute concernant la monstruosité de ce qu'il peut commettre dans l'avenir , agite péniblement la pauvre tante . Berthe " glacée , pétrifiée n'en croyait pas ses yeux son tendre petit garçon , son petit Alain , faire cela à " Tatie " (2) , s'indignait - elle

Après ce geste abominable , elle ne le voit plus du même oeil Sa silhouette ne dote de contours flous et odieux Dorénavant son image lui semble défigurée elle " ressemble un peu à celle que renvoient les miroirs déformants des foires... Une image insolite , grotesque , un peu inquiétante " 3

En somme , elle se sent " séparée de lui pour toujours par une distance qu'il ne lui sera plus possible de franchir " 4

Ainsi l'affection de l'héroïne pour cet Alain vorace , n'aneantit Elle fut étouffée et par la méfiance et par l'avidité .

Une discorde fondamentale se perpétue .

Ne trouvant que des preuves d'ingratitude autour d'elle , l'héroïne devient plus passive plus transie , plus engourdie que de coutume ! D'autre part , le sentiment de l'injustice

1) op. cit., P. 200 .

2) ibidem .

3) op. cit., P. 195 .

4) op. cit., P. 202 .

la trouble et augmente la dose du doute dans son existence
Cette écorchée de l'amour - propre est peignée par le cynisme
d'Alain et par la cruauté de son frère . Hélas ! Elle n'a
pas d'autres parents en qui elle peut se réfugier contre
le tumulte intérieur qui l'altère .

L'impossibilité de communication s'impose . Elle s'ache-
mine vers l'absence totale de relation . Elle sombre dans
la solitude et le mutisme . Mais elle a tort d'agir de la
sorte, puisque " Le sévère Dieu du silence

est un des frères de la mort ."

Au lieu de déplorer le délabrement intérieur l'aridité de
la vie , elle aurait dû s'épancher , et avoir recours à
une âme amie à qui elle pourrait confier ses peines et ses
déceptions .

Entre temps , elle constate combien elle était fragile
faible et périssable , Elle imagine , sans cesse, sa défaite ,
son déclin . Elle écoute dans le calme nocturne , cet orage
intérieur qui l'ébranle. Sarraute déclare à ce propos "Elle
demeure là pour toujours dans ce trou qu'elle s'est creusé ,
trop faible pour s'évader , à pietiner , à tourner sans fin"1)

1) op. cit., P. 31 .

Pour se délivrer de l'inquiétude, dans l'âge adulte, on doit avoir recours au travail. Il faut chercher à s'absorber, corps et âme dans la besogne. Ainsi, on parvient à se soustraire aux craintes et à les dompter.

Par malheur, l'héroïne n'a pas suivi la voie du salut elle s'est laissée prendre aux filets de ce sentiment nuisible et se glissa dans les méandres des peines. Ceci est devenu une habitude avec le temps. Ainsi, elle s'inquiète au sujet de la porte, des trous invisibles, du poignet de la porte; et la liste est bien longue.

En somme, Berthe couve dans l'esprit, un mal vague qui émane de cette anxiété préparée depuis l'enfance. C'est une anxiété fondamentale. Cet état se caractérise par des incertitudes qui tissent l'attitude anxieuse globale. Cette anxiété se caractérise par la tendance à une vue pessimiste des choses. Cet ^{est psychique} ~~consiste~~ à éprouver à l'égard de soi, de l'entourage, un sentiment assidu et flou d'incertitude.

Or, l'héroïne sentit s'émettre dans ce "sillon" fondé depuis l'âge tendre "cette même frayeur d'enfant", en voyant son frangin aborder la question de l'appartement. "... Je voulais te parler ... glissa-t-il... Je voulais te parler... C'est cet appartement".(2)

Elle sentit alors arriver le messager de l'adversaire qui est venu sonder le terrain et débayer le chemin pour le coup prémédité. Elle nourrit ainsi sa disposition téméraire fondamentale, d'origine infantile... Saisie d'inquiétude, la protagoniste évoqua "la lueur avide" qui étincelait jadis, dans les yeux du petit neveu quand il l'amenait à lui acheter quelques jouets, contre son gré. C'est cette même lueur qu'elle vit briller, il y a quelques jours, lorsqu'elle lui proposa son appartement.

(1) Le planétarium, P.212
(2) Le Planétarium, P.177

Mais pourquoi leur a-t-elle fait cette proposition! Et elle regrette avec amertume cette offre importune.

Ainsi, le monde extérieur ne disparaît pas tout à fait de l'univers de Berthe. Les rapports avec les gens de l'extérieur deviennent ^{des rapports} d'agression ou d'exclusion. A savoir qu'elle ne garde guère aux choses leurs justes proportions..

Pourquoi s'est-elle laissée glisser à cette offre?

C'est qu'"elle a cédé à cette envie qui la saisit parfois de faire la bonne fée" (1). Hélas! elle s'est prise au moment au jeu, mais eux, le jeune couple alléché "n'en revenaient pas"(2)

A la suite de ses réflexions, Berthe fut envahie d'anxiété de malaise et de trouble : "Elle a peur, quelque chose lui fait peur, non ils n'ont échangé aucun regard [...], c'est quelque chose plutôt de trop rapide, de trop immédiat dans cet air surpris qu'ils ont eu[...] comme si tout était prêt en eux depuis longtemps, les mots qu'elle a prononcés sont tombés comme un fruit qu'ils avaient regarder mûrir."(3)

C'est à travers les différents monologues intérieurs que les événements sont évoqués et que sont étendus les fragments du dialogue. L'oeuvre de Sarraute prend l'allure d'une satire sociale; l'auteur en grossissant le procédé de la répétition, met en vedette le caractère artificiel de la vie en société.

Nathalie ne part pas en guerre contre telle ou telle iniquité sociale, mais elle utilise méticuleusement les matériaux que lui procure l'angle qu'elle connaît à fond. Elle met en relief le mécanisme du plus simple et du plus caractéristique : la famille. Elle analyse des drames microscopiques, toujours internes, dissimulés, on ne peut les deviner qu'à travers la surface, à partir des conversations et des actions d'apparence insignifiante. A ces procédés, elle ajoute d'autres moyens considérés en général, comme marginaux par les écrivains : analyse de l'altération de voix ou bien la reprise d'une même scène, telle qu'elle est éprouvée par trois protagonistes à vision différente.

(1) Op. cit., P.179

(2) Op. cit., P.180

(3) Op. cit., P.180

La vérité n'est pas ce qui est narré, mais ce qui, pour chaque personnage, l'accompagne.

Ce procédé suppose que l'auteur a annulé un certain problème, celui du point de vue de la narration. Elle se pose à la meilleure distance possible de l'incident : "Pour arriver à reproduire ces actions, ces mouvements, il a fallu que je place aux limites de la conscience du personnage une conscience plus lucide que la sienne". Dans ce sens, la romancière passe dans la même phrase d'un protagoniste à un autre, sans aucune transition et sans prévenir le lecteur! Ceci ne nous indispose pas, puisque le sujet du livre n'est pas le personnage, mais l'histoire; celle-ci implique deux protagonistes, un autre vers lequel on se dirige ou bien duquel on s'écarte. Pétrie d'amertume, Berthe regrettait ce qu'elle a proposé au ménage. Alain, donnant ainsi le jour à un vent foudroyant. Mais pourquoi a-t-elle ouvert cette porte infernale, alors qu'elle-même, dans sa jeunesse, vivait dans une mansarde! En outre, elle y était heureuse, car elle se sentait indépendante.

Remuant ses pensées, elle constata qu'elle a fait cette proposition, cédant au besoin qui la saisit rarement "de tout épurpiller aux quatre vents"(1). Si cette femme si crispée a voulu, dans un laps de temps, savourer le goût du danger, elle chercha à percevoir la lueur d'un danger, dorer cette affaire

Ce fait, bien que d'apparence paradoxale, s'avère authentique. En fait, il arrive à chaque humain d'agir, un jour, d'une manière contradictoire à sa nature. Dans ce sens, citons l'Avare qui devient dépensier, malgré son avarice, avec la jeune personne qu'il compte épouser. A savoir que ce même Harpagon, alléché par l'argent, était prêt à sacrifier le bonheur de sa fille pour gagner quelques biens.

Ainsi, répondant au besoin qui l'effleura un instant, Berthe introduit la note trouble dans toute son existence.

(1) P.179

Alain enfant a subi une éducation insalubre dans du "cotton", comme on dit. Durant son enfance, l'entourage ne devait parler de rien devant lui... " Tout était impur, on risquait de salir le petit ange, son père tremblait..." (1)

Mélas! le petit a eu l'éducation molle de serre chaude. Evoquons le passé ... " Je parlais de je ne sais plus quoi de tout à fait anodin, relate Fernande (2) le père a rougi ... Oh! non ... après, pas devant l'enfant" (3) désapprouvait-il? En fait, Pierre sondait d'une manière quasi malade tout ce qui touchait à son enfant.

En somme, à voir son père l'enivrer d'une protection outrée et à voir ce que tante Berthe en faisait ... [" elle bourrait le petit en cachette pour se faire aimer." (4)], on déduit qu'ils feront d'Alain un petit " chenapan." (5)

Berthe lui permettait durant l'enfance de faire ce que lui inspirait le caprice du moment. Elle a été pour lui une source où il aiguisait son penchant pour les caprices et un block où il émoussait ses griffes pour qu'ils repoussent plus résistants.

Par ses gâteries pour Alain et par son abstention à lui donner une éducation positive et disciplinée, tante Berthe contribua, dans une grande mesure, à lui infliger des dispositions à l'égoïsme et au goût facile. Ainsi se déchaîna-t-il comme un cheval ombragé. Souvent ce gamin martelait sa tante de ses petits poings pour obtenir des choses inadmissibles.

(1) Le Planétarium, P.191

(2) L'amie de la famille

(3) Le Planétarium, P.191

(4) Op. cit., P.192

(5) Op. cit., P.191

L'indulgence, la clémence et la tendresse outrées de la tante, rendent le neveu frascible et prompt à braver les principes et le sens du respect.

L'obéissance aveugle - pour ainsi dire - de celle-ci éveille en lui l'esprit de domination, de la fantaisie capricieuse et l'orgueil. Il ne réprime point ses désirs audacieux. Il se cabre obstinément contre les gens. Il les juge d'un oeil inhumain. Dans ce sens, l'ingrat marié, considère à présent sa tante dévouée comme une entrave, puisqu'elle l'empêche de s'emparer de son bien... " Lourde, inerte, toute tassée sur elle-même. Enorme masse immobile, couchée en travers de son chemin. Il a envie de la pousser pour la déplacer, de cogner dedans à grands coups de poing, de pied, pour la faire bouger." (1) Telle est son attitude envers la femme qui lui fut une seconde mère.

Il est prêt à pénétrer sur un terrain dangereux sans broncher. Il force la résistance des autres, même à qui il est le plus obligé. ^{Voulant s'emparer de} l'appartement, il crible sa tante dévouée d'actes inhumains et de viles intrigues.

Il franchit toutes les limites, sans songer aux conséquences. Sa fougue, brisant tout contrôle, l'entraîne dans son tourbillon sinistre. Il va jusqu'à menacer sa seconde mère, de la dénoncer au propriétaire et de la faire expulser. Brisant les digues, il lui jette tout cela à la figure avec une voix furieuse. On dirait que c'est injuste de ne pas lui céder sa maison. Dans cette dérisoire inversion des rôles, il lance à sa tante : " Vous savez que vous n'avez pas le droit. L'indignation, la rage font trembler sa voix... " Vous n'avez pas le droit de faire ça." (2) Cependant la pauvre femme, si attachée à son appartement, disait à l'ingrat :

(1) Op. cit., p. 187.

(2) Op. cit., p. 187-188

" Je trouve qu'on n'a qu'une vie, je n'ai jamais rien demandé... tout ce que je veux, c'est qu'on me fiche la paix." (1)

Cette pauvre femme chérit, pour ainsi dire, son appartement. Elle est éprise de lui. On dirait que c'est un ami humain. Ceci nous mène à évoquer le mot de Lamartine : "Objets inanimés avez-vous donc une âme qui s'attache à notre âme et la force d'aimer?"(2)

Alain s'avère doublement fautif à l'égard de l'héroïne. D'abord, il veut s'emparer d'un appartement auquel il n'a pas droit. Puis, il la harrasse et l'assaille de méchanceté, fait qui peut l'amener au bord de la folie, voire à l'abîme de la folie. Car elle est très nerveuse, assez fragile... elle a eu de graves crises de dépression autrefois."(3) A présent, Berthe est fort troublée par la conduite de cet ingrat. "Je n'en dors pas" (4), se plaint-elle à son frère.

Comme son père veillait trop sur lui, Alain s'avère élevé d'une manière insatisfaisante. Le père a borné les regards de son fils à des horizons limités. Si ce garçonnet avait joué avec les enfants de son âge, durant l'enfance, il aurait pu exprimer son exaltation juvénile, dans les jeux militants, et son ardeur se serait probablement, assouvie au bord de l'enfance. L'enfant avait été trop choyé et avait subi certaines contraintes. Mais les germes de la méchanceté, de l'avidité et de la méchanceté de l'âme, poussaient en lui, trouvant un milieu favorable dans ses désirs contraints. Elevé de la sorte, il ne connaît aucun frein; quand il a envie de quelque chose, rien ne l'arrête"(5). Habitué à se réfugier dans le sein maternel que représentait tante Berthe, ce rebelle n'a presque pas connu les souffrances, ceci n'est pas une attitude saine de la part des parents.

(1) Le Plandarium, P.187-188

(2) Lamartine, Milly P.61

(3) Le Plandarium, P.195

(4) Op. cit. P.203..

(5) Op. cit. P.192

Il n'est pas surprenant que les coups du destin soient infligés aux êtres humains pour les durcir. Pour qu'un arbre tienne bien, soit solide, il faut que le vent le fouette, la secousse même le fortifie et le contraint à fixer plus solidement sa souche. Fragiles sont les plantes qui ont poussé dans une plaine baignée de soleil. Pour être invulnérable au tumulte intérieur, l'homme devrait vivre parmi les périls.

* L'homme est un apprenti

La douleur est son maître."

Pédagogues et psychologues signalent que les expériences poignantes subies au jeune âge, dans le domaine matériel ou affectif, sont propres, dans la majorité des cas, à raffermir l'homme et à le rendre apte à surmonter les peines acerbés, à venir Avis aux parents qui élèvent leurs enfants comme les plantes "à serre", car ces petits malheureux s'étiolent vite, dès qu'ils frôlent la vie extérieure.

En somme ce qu'a fait Pierre est contraire à ce qu'enseignent les pédagogues... Ceux-ci nous conseillent d'amener l'enfant à s'instruire par lui-même, dans une certaine mesure. Cette méthode exige l'art d'éveiller la curiosité, sans en avoir l'air. Il faut susciter implicitement le sens de l'observation. D'autre part, on doit favoriser l'épanouissement physique : liberté de se mouvoir, et de prendre contact avec le monde par les sens. Peu à peu, on rend l'enfant courageux, en le familiarisant avec des spectacles effrayants ou des bruits impressionnants. Il est déconseillé donc d'agir comme Pierre et d'écarter le petit de tout ce qui est susceptible de le déniaiser ou de lui déblayer la voie de la désobéissance.

Si on ne connaît pas l'existence du mal, on ne pourra pas s'en défendre, une fois mûri. Ainsi aveuglé, on trébuche au premier chemin épineux.

Voici une page qui illustre les défauts qu'engendre cette éducation : éviter de parler de l'existence du mal aux élèves. Il s'agit du Couvent où est élevée Emma (1).

Là, on nous montre que l'éducation d'Emma et le milieu aidant, favorisent des penchants excessivement romanesques. Les bonnes religieuses répandaient les cours de catéchisme au détriment des autres leçons aptes à élucider les esprits de ces jeunes filles naïves et inexpérimentées. L'ambiance du Couvent exercera une influence déterminante sur la vie future de l'héroïne. Le soir, avant la prière, on faisait dans l'étude une lecture religieuse. C'était pendant la semaine, quelques résumés d'Histoire Sainte ou les Conférences de l'Abbé Frayssinous; le dimanche, des passages des livres portant sur la religion, par récréation."(2)

Comme on n'exposait la belle pensionnaire à aucun problème, elle aspirait aux choses agitées. Accoutumée au silence, elle se sentait penchée vers le tumulte: " Habitée aux aspects calmes, elle se tournait, au contraire vers les accidentés. Elle n'aimait la mer qu'à cause de ses tempêtes et la verdure, seulement lorsqu'elle était clairsemée parmi les ruines."(3)

Entre temps, Emma dévorait, clandestinement des romans pris d'une demoiselle chargée de la lingerie. Et le romantisme dans l'âme d'Emma s'accroissait davantage. Dans les ouvrages que lisait la jeune fille cloîtrée "ce n'étaient qu'amours, amants, amantes, dames persécutées s'évanouissant dans des pavillons solitaires, postillons qu'on tue à tous les relais, chevaux qu'on crève à toutes les pages, forêts sombres, troubles du cœur, serments, sanglots, larmes et baisers, nacelles au clair de lune, rossignols dans les bosquets, messieurs braves comme des lions, doux comme des agneaux

(1) Emma, l'héroïne de Mme Bovary

(2) Mme Bovary, 140

(3) Op. cit., P. 141

vertueux, comme on ne l'est pas; toujours bien mis et qui pleurent comme des urnes." (1) - Emma rêve la vie à travers ses lectures romanesques. Par là, son mariage sera étroit d'amertume..

En somme, au Couvent, Mlle. Rouault reçoit une dose très forte de catéchisme et une éducation pleine de restrictions austères. Peu avant son départ, les religieuses qui voyaient en elle une promesse presque sûre, constatent avec étonnement qu'elle échappe à leurs principes. Elles lui avaient tant prêché les offices, les sermons, qu'elle devient comme ces chevaux que l'on enchaîne par la bride. "Elle s'arrêta, et le mors lui sortit des dents." (2) Une fois engagée, son mariage paraît une défaite, car elle est victime des ~~châtiments~~ qu'elle nourrit et d'aspirations qui ne conviennent point avec sa condition de petite bourgeoise sentimentale. Bientôt, elle va tromper son pauvre époux, et criblée de dettes, elle va se tuer par l'arsenic.

Après cette digression, retournons à Alain, enfant, et aux principes de l'éducation salubre. Il faut que le petit pratique le sport, c'est à la base de sa formation physique et morale. En somme, l'intelligence pratique sera formée par l'expérience. A savoir que l'âme enfantine doit se contenter d'une liberté bien réglée. Il faut éviter de gaver l'enfant de tout ce qu'il veut.

Il est déconseillé de tenter d'ériger le bonheur du petit sur cette base perverse : assouvir tous ses désirs, alléguant qu'il n'aura qu'une seule enfance. Si l'on veut satisfaire l'enfant, il vaut mieux lui parler raison, d'une manière qui s'accorde, bien sûr, son âge. On ne doit pas agir comme Pierre qui écarte son fils de toute connaissance hors du cercle restreint de la famille. En somme, il faut, à la fois, déniaiser l'enfant, l'élucider sans cacher la vérité, tout en lui donnant une dose d'estime et de tendresse. Ceci ennoblit le petit.

(1) Mme Bovary, P. 47-48
(2) ~~op. cit.~~, P. 48

l'enivre du sentiment de dignité et du sentiment qu'il est chéri par sa famille...

Voyons la scène suivante palpitante de vie et de leçons d'une modernité étonnante...

Minet, chéri, enfant-héroïne de la Maison de Claudine (1)- s'empare d'un certain Zola, interdit par ses parents...

Lisant le livre au jardin, elle tombe sur une description crue d'un accouchage. Il s'agit d'une page qui grouille de détails de sang souillé, et de chair répugnante. La fillette ébahie, se sent "menacée dans son destin de petite femelle." (2)- Sur ce, elle s'évanouit sur l'herbe. Alors, Sido, la mère, s'évertue à la calmer, en détruisant l'effet du choc sur elle. Elle lui berce les oreilles d'un récit fort touchant, si doux à entendre, concernant sa naissance. Elle lui conte alors, entre autres, que lorsqu'elle lui donna le jour, elle demeura souffrante trois jours et deux nuits, et que durant sa grossesse, elle était trop forte. Toutefois, elle n'a jamais regretté ses souffrances et elle signale la cause d'une voix vibrante de tendresse et de fierté, apte à remonter le moral de la petite effarée... "On dit que les enfants, portés comme toi si haut et lents à descendre vers la lumière, sont toujours des enfants très chéris, parce qu'ils ont voulu se loger tout près du cœur de leur mère, et ne la quitter qu'à regret..." (3)

A ces mots suaves, Minet-chéri reprend par degrés ses forces morales et physiques...

Grâce à la logique maternelle, le choc de la surprenante vérité, concernant la connaissance d'un bébé, s'ébrèche vite et d'une manière salubre, ne laissant à la fillette qu'un léger étonnement normal et éphémère.

(1) La Maison de Claudine, Ma mère et les livres P.168

(2) [Cet ouvrage est écrit par Colette] op. cit. P.168

(3) Op. cit P.168

Bibliographie sommaire

I- Oeuvres de Nathalie Sarraute

(Nous proposons ici les principaux titres des ouvrages
de Sarraute)

A- Romans .

- L'Ere du soupçon - Gallimard , Paris 1956 - 185 pp .
- Tropismes ed . de Minuit , Paris , 1957 .
- Martereau - Gallimard , Paris , 1953 - 247 pp .
- L'Planétarium ed . Gallimard Paris , 1959 - 251 pp .
- Les Fruits d'or - Gallimard , Paris 1963 - 157 pp .
- Entre la vie et la mort - Gallimard Paris 1968 - 174 pp .
- Voulez vous les entendre ? - édition Gallimard Paris 1972 -
223 pp .
- Sarraute: Disent les imbéciles Gallimard Paris 1976 -
193 pp .

B- Théâtre .

- Le silence, suivi de Le Mensonge , ed . Gallimard Paris,
1967 .
- Isma suivi de Le Silence et Le Mensonge ed . Gallimard ,
1970 .
- Elle est là ed . Gallimard , Paris 1978 .

II - Etudes critiques sur l'oeuvre de Sarraute

- Allemand André : L'oeuvre romanesque de Nathalie Sarraute
ed . de la Bacconnière , Neuchâtel (Suisse) , 1980 - 487 pp
- F. Galin : La Vie retrouvée - Nathalie Sarraute Editions
Lettres Modernes - Minard - Paris - 1976 - 249 pp .
- Cranaki Mimica et Belaval , Yvon , Nathalie Sarraute , Paris
Gallimard , 1965 .
- Eliez - Rüegg , Elisabeth : La Conscience d'autrui et la
conscience des objets dans l'oeuvre de Nathalie Sarraute
Berne Lang 1972 .

- Tison Braun , Micheline : Nathalie Sarraute ou La Recherche de l'authenticité ed . Gallimard Rennes , 1971 - 251 pp .

III - Ouvrages généraux

- Albérès René - Marill : Histoire du Roman moderne , Paris Albin , Michel , 1962 .
- Rebbe - Grillet Alain : Pour un nouveau roman Le Seuil 1957 .
- Trahard Paul : Les Maîtres de la sensibilité française V 4 - Paris Boivin , 1933 .

IV - Autres œuvres consultées

- Camus (Albert) : L'Etranger édition Gallimard , Paris 1942 160 pp .
- Chateaubriand : Mémoires d'Outre - tombe tome II ed . Flammarion , Paris , 1948 , 753 pp .
- Colette : Oeuvres de Colette Flammarion , Paris , 3 volumes, 1960 .
- Du Bellay : Poésies , livre de Poche , Paris , 1967 - 347pp
- Flaubert (Gustave) : Mme Bovary , éd . Garnier Flammarion , Paris , 1966 - 441 pp .
- Freud (Sigmund) : Malaise dans la civilisation P.U.F. , Paris.
- Fromentin : Dominique , plon , Paris , 1906 - 116 pp .
- Le Hardouin (Maria) : Colette éd . Universitaires , Paris , 1956 - 127 pp .
- Karmigui (Deil) : Sans souci , commencer la vie . Traduit de l'anglais à l'arabe par Abdel - Moneim Mohamed , ed . Moassat El - Khargui , Le Caire , 1970 - 315 pp .
- Lamartine (Alphonse de) : Oeuvres choisies (poésies) Les Lettres françaises , Le Caire , 1944 - 110 pp .
Harmonies poétiques et religieuses .
- Morand (Paul) : L'Homme Pressé ed . Gallimard , Paris , 1972- 281 pp .
- Musset (Alfred de) : Oeuvres Complètes , La Renaissance du livre S.D . Poésies Nouvelles 596 pp .
- Le Roux (B .) (Revue) L'Ecole des Lettres 19 mai 1973 - second cycle .
- Vigny : Poésies Complètes - Classiques Garnier , Paris , 1962 - 335 pp .



Les cœurs qu'on éteint. Nora - Vicaine - Anne
[Héroses d'Elzen, de Claudel et de Sagan]

FADIA HAFEZ

Introduction

"Tous les hommes rêvent, mais il semble parfois que ce soit l'histoire qui rêve à travers eux".

Parmi les personnes à travers lesquelles l'histoire paraît rêver, se dressant en premier lieu, les héros.

Héros est un mot grec. Il désignait à l'origine les demi-dieux, fils d'un dieu et d'une femme et vice-versa, tels que: Achille, Enée, Hercule Mais à l'époque antique, on surnomma héros, de simples humains, chers aux dieux: personnages légendaires ou historiques comme le poète Homère, le médecin Hippocrate, les philosophes Socrate et Aristote

À la longue, le mot "héros" se bornait à désigner les hommes singuliers, pourvus de vaillance et de grandeur, capables d'actions remarquables et dotés d'un esprit de sacrifice total.

En somme, le héros paraît nécessaire au peuple. Il lui présente un modèle parfait auquel il peut s'identifier et lui transmet un sentiment d'assurance.

L'homme que gouverne l'héroïsme se jette à corps perdu dans une action noble. Il trouve en joie dans le geste vaillant il s'engage avec clairvoyance et courage dans un don total qui l'amènera à aller jusqu'au bout de lui-même, à se dépasser. Il est épris de quelque chose de supérieur à son intérêt immédiat. Ainsi cet être vaillant recherche, dans l'action non point un but en soi, mais le sens même de la vie.

Le héros a une foi en l'amélioration de la société humaine. Il fait un effort vers la compréhension, le travail intellectuel ou manuel productif.

Une telle tendance généreuse implique la notion de sacrifice. Le sacrifice garantit la permanence de la solidarité. Il se révèle comme un rempart précieux contre l'égoïsme vulgaire.

Bref, les héros sublimisent notre vie et nous mènent à la voie du salut. Aussi faut-il toujours les glorifier, et célébrer leur vaillance.

Hélas! tel n'est pas toujours le sort de ces êtres. Il arrive parfois, qu'on sacrifie des hommes à cause de leur héroïsme! Le cas de Socrate est bien significatif à cet égard....

Sur un plan général, on ménage désormais, ces géants de la pensée qui rendent d'incalculables services à leurs semblables pour améliorer des générations actuelles et des générations futures.

De nos jours, parfois, les autorités des pays despotiques détruisent certains de ces héros, parce qu'il troublent leur puissance, ou plutôt leur dictature.

On abat donc, ces "chênes", sous le prétexte de les empêcher de contaminer les autres. On piétine sauvagement ces héros à cause justement de leurs sacrifices.

Cet outrage peut être toléré, dans une certaine mesure, s'il provient des autorités, c'est à dire de personnes qui sont loin d'eux. Mais quand il s'agit d'une peine qu'infligent les siens, c'est là que le coup s'avère mortel!

Citons quelques cas qui illustrent ce fait: Nora, héroïne de Maison de Poupée, Violaine, protagoniste de L'Annonce faite à Marie et Anne, personnage important de Bonjour Tristesse.

Ces trois figures opprimées font le sujet de notre étude.

Première partie
NORA

A l'opposé des mousquetaires qu'on glorifie pour leur héroïsme, se dresse une liste de héros qu'on maltraite, qu'on rejette - - - - - à cause de leurs actes ou de leurs gestes vaillants ! Citons, entre autres, Nora⁽¹⁾ d'Ibsen. Il s'agit là d'une femme qu'on maltraite et qu'on oppresse parce qu'elle a fait preuve d'héroïsme clandestin. C'est Nora dont la vie est un vaste hymne d'attachement à Helmer. Hélas ! ce dernier la considère d'une manière erronée. D'ailleurs "tout le malheur ne vient que d'erreur" - - - - - dit Stendhal⁽²⁾. Le mari désire son épouse semblable à une marionnette. Car, pour lui, "émanciper la femme c'est la corrompre" tel que le signalait Balzac dans La Femme de trente ans ! Dans ce sens, il forme sa conjointe, ou du moins le croit-il, avec deux ou trois idées qu'il estime justes, intéressantes et qu'il ne cesse de lui répéter. Il la considère comme une créature dépendante, une automate ingénieusement construite ! On trouve chez cette épouse tous les degrés de la soumission. Presque à chaque mouvement de Nora, on croirait voir les ressorts que le mari y a introduits et qu'il manipule au dehors. Cet Homme symbolise une certaine

1) Nora est l'héroïne de Maison de poupée.

2) Correspondance, Lettre à Pauline, Vendredi 11 mai 1804.

forte de puissance . Il arrivage sa puissance sur la
 résonance souriante, l'apaisement et il fait toujours
 irriter les élans intropides, naïfs et parfois inconcevables.
 Quant à Nora , non seulement elle ne manifeste pas de
 désapprobation contre la supériorité et la tyrannie mascu-
 lines , mais elle va plus loin Elle conspire contre
 elle - même .. .) Cette jeune femme , pleine de bon sens
 dissimulé , confirme les illusions de son conjoint qui a
 nourri ^{ses rêves} Elle lui fait présent d'une chimère qu'il aime
 maintenir et nourrir !! Cette chimère consiste à se vêtir
 d'une dépouille d'insouciance , d'indifférence et d'élans
 puérils , voire insensés . . . Elle s'empare souvent de
 petits gâteaux dans les magasins !! L'époux se complait
 dans ces sortes de pillage que fait sa Naura . On condamne
 sa sympathie souriante pour le léger travers de celle - ci. Elle

répète à maintes reprises : "Est ce que je me soucie de
 quelque chose , moi ?" (1) Elle prétend qu'elle ne peut trancher
 aucune affaire . Dans ce sens, elle répète: "Torvald , je ne
 puis rien décider sans toi" (2) Elle semble l'image de la femme-
 objet, aveuglément soumise ! Cette sorte de "petit oiseau
 enchanteur" (3), de "petit écurcuil" (4), de "poupée" (5)

1) Maison de Poupée, Acte 1 - p. 19

2) op. cit., acte 1 - p. 64.

3) op. cit., acte 1 - p. 66.

4) op. cit., acte 2 - p. 78.

5) op. cit., acte 3 p. 157.

est ce que préfère Helmer .

L'épouse rejetée loin des intérêts du foyer, et releguée au second plan , prend ses distances de la responsabilité tant qu'il n'y a pas de péril qui menace le salut du ménage. Apparemment, elle joue un rôle fort passif, voire marginal dans le couple parental. C'est ~~une~~ ^{cette} apparente frivolité ^(insouciance) ~~et légèreté~~ qui attachent le plus son partenaire à elle . On dirait qu'il puise sa force dans la fragilité et la vacillité de cette dernière . Il croit ou plutôt veut croire qu'elle n'est bonne à rien de sérieux et qu'elle ne peut jamais se tirer d'affaires . Aussi la nomme - t - il " petite embarrassée " (1) Il ~~s'imag~~ ^{s'imag}ine qu'elle ignore le côté pénible de la vie ! Ainsi se délecte - t-il de répéter , faisant allusion à sa femme : "ce qu'il coûte à un homme de posséder un étourneau !" (2) Il lui dit encore souvent : "tu parles comme un enfant , tu ne comprends rien à la société dont tu fais partie" (3) .

Pour connaître le vrai visage de Nora , fondons ses actions et ses faits , sous cette feinte de naïveté qu'elle parade devant les yeux complaisants de son époux . Pour ce faire , remontons à quelques années dans son passé . Au début de sa vie

1) op. cit., acte 2, p. 106.

2) Maison de poupée, acte 1, p. 20.

3) op. cit., acte 3, p. 184.

... depuis son mariage, elle n'a pas de ressources. Les médecins assuraient que Helmer devait mourir (1), sinon il s'exposait à la mort.

C'est alors Nora, cet être candide qui assume toute la responsabilité, alors qu'elle venait de mettre Ivar au monde. Et qu'elle souffrait encore des douleurs de l'accouchement. Pour le voyage en Italie on avait besoin de douze cent écus. Alors pour sauver son époux chéri, en lui procurant l'argent nécessaire au voyage, elle a fait des dettes et elle a faussé la signature de son père Etant au service de son mari corps et âme, elle fait ce sacrifice, de bon cœur.

Pendant, cette jeune femme si fine, sera dans quelque temps accusée pour cette affaire, par son mari, d'irresponsabilité. Si vous voulez Nora qui a le sens de la responsabilité et qui a sauvé son

Homme, nous fait penser à Sido⁽³⁾. Car celle-ci remplit le rôle de l'homme à la maison et à l'extérieur.

A l'opposé de Helmer qui ne veut fort, même s'il s'agit d'

1) op. cit., acte premier, P. 28.

2) ibidem.

3) *l'Héroïne de Colette*

force chimérique , se dresse le capitaine Colette (1).

A l'inverse de Torvald , celui - ci ne dissimule guère la supériorité de sa conjointe , ni sa propre attitude d'irresponsable . Cet homme subalterne ne nie pas sa fragilité Ainsi, lorsque sa femme est tombée malade, un jour il demeure narré à son chevet et souligne , plaintivement " Gare , si tu ne guéris pas ! J'aurais bientôt fait de ne plus vivre " (2). Mais Sidonie l'apaise , et altère son tumulte en le caressant .

Dans le couple conjugal , Sido occupe de façon indéniable la première place . Loin de jouer la comédie comme Nora , el accuse son mari de ne se soucier de rien : " pourvu qu'on ^{ne} trouble pas (s)a cigarette d'après - midi et (s)a partie de domi
Sidonie a raison de dire cela . Car un mari , qu'onqu'entrepre

I) C'est le capitaine Colette , père de Colette , romancier célèbre : l'auteur de Chéri .

2) La Maison de Claudine, tome 3 , P . 280 .

3) op . cit , P . 161 .

nan', n'a pas de sens pratique Il passe sa vie à ruminer de
grande espoirs , aboutissant toujours à l'échec . Les preuves
ne manquent pas . Il est en train de ruiner sa famille qu'il
veut enrichir Ainsi il perd presque tout l'héritage de sa
belle - fille par sa tutelle imprévoyante . Il rate une carrière
d'écrivain Il échoue dans les élections Vu les
défaillances paternelles , c'est la mère qui organise toutes les
affaires de la famille . Et l'époux dépend de même de cette
femme prévoyante et pratique .

Cette inversion des rôles provoque un manque de respect à
l'égard du capitaine au sein de sa famille . La petite Gabri ,
clairvoyante , observe à cet égard que sa mère bien qu'aimant
son père , le traite " légèrement dans l'ordinaire de la vie " (1)
Les quatre enfants étaient conscients de la vassalité de leur
père , même le petit chien de la famille n'obéissait pas à ce
dernier ! Depuis l'âge tendre, l'homme paraît à Gabri subordonné
à sa femme . L'enfant portera cet univers en elle . Gabri voit
sa mère se pencher dignement, sur son conjoint , tantôt le soute-
nant , tantôt essayant de corriger ses faiblesses. Ainsi Gabrielle
constate à raison : " dans la grappe pendue (aux) flancs (et aux

1) Sido , P . 271.

épaules maternelles) mon père pesait comme nous , et nous soutenait guère " (1). En somme, Sido remplit avec aisance, le devoirs de l'homme et exerce son pouvoir . Gabri transmet sur le plan général ce qu'elle voit de particulier chez ce père fragile symbole de l'être masculin .

Influencée par sa mère ,

personnage principal de toute son existence , elle conçoit l'époux à l'image du capitaine Colette : dépendant de sa partenaire .

Cette conception ne manquera pas de percer plus tard , dans les écrits colettiens , dont la plupart sont des autobiographies romancées . Ainsi la femme y devient l'affranchie , l'aventurière , tandis que l'homme réside, docilement, au foyer . Et parfois , il est gibier , la proie d'une femme chasseresse . L'auteur se complait dans cette inversion des rôles où elle en vedette, l'adolescent faible (Marcel) et l'époux en herbe (Renaud , Chéri) .

I) Sido, p . 280 .

Pour égaliser , la femme emprunte à son partenaire du mauvais penchant : le besoin de dominer, par exemple

Les écrivains dans ses ouvrages la démystifient de l'homme sur tous les plans . Ainsi lorsque la femme ne domine pas le protagoniste dans la société, elle s'évertue à le dominer du côté psychologique . Quand elle n'y réussit pas, il reste la possibilité de le considérer inférieur .

Si l'homme est mis en vedette dans le roman , l'auteur le dote de composantes féminines! Soulignons, entre autres , le besoin de se parer , ou l'oisiveté

En principe , l'homme⁴ est réduit à sa seule fonction amoureuse !

D'ailleurs , le refus de la maternité confirme le vouloir de l'héroïne coïtienne de maintenir son partenaire dans son rôle d'amant exclusif .

être toujours relégué au second plan , voire congédié à jamais .

En général, la romancière élimine le héros, soit par le meurtre soit par sa disparition . Cette tendance de se débarrasser du protagoniste confirme la conception originelle de Colette : la fragilité de l'homme par rapport à la femme qui le dépasse en fermeté et en sagesse . L'analyse de l'attitude que manifestent les héroïnes d'un écrivain comme Colette, éclaire celle de la protagoniste .
Posons une question personnelle : Qu'est ce qui a fait éclater toute cette force en *Nora* ? C'est l'amour

Certes , l'amour fait jaillir des puissances surnaturelles du sein de l'être humain . Ces puissances emportent tout... Elles vont de pair avec un grand pouvoir de sacrifices qui ne se trouvaient pas auparavant - idée sur laquelle nous avons à revenir .

Dans ce sens , Nora sauve Helmer au détriment de son père ! Elle s'abstient d'aller secourir cette généreuse âme qui s'éternait à petit feu : "Je n'ai pas pu aller (....) soigner mon père " (1), gravement malade, confie -t-elle à son amie intime .

Ainsi elle abandonne son père tendre pour donner la priorité à son cher conjoint qui "avait besoin de (ses) soins " (2) .

1) Maison de poupée , acte premier , P . 28 .

2) Ibidem .

Cependant, Nora demeure en apparence pucelle & légère. Elle se défie si bien cette apparence que cette image se mêle dans l'inconscient de son époux. Cette silhouette s'ancra dans sa tête. Car c'est le portrait qu'il préfère pour sa femme.

Ainsi les images prennent dans la conception esthétique de la pièce un rôle structural, pour qu'à travers elles, le dramaturge, puisse nous révéler, avec une subtilité et une discrétion incomparables, les motifs secrets de ses personnages. Ibsen nous introduit dans son beau royaume des images. Nous nous y attardons pour bien apprécier la splendeur, et la subtilité de cet emploi symbolique. Ibsen maintient l'aspect de Nora palpitant de "légèreté" (1)..... C'est un leit-motiv qui revient sous la plume de l'auteur. Dans ce sens, souvent le mari derrière lequel flotte une ombre ténébreuse, signale à ses approches : "C'est l'écureuil qui remue" (2). Avec ce mot, on a tout de suite l'impression d'une ingénue qui galope partout, abstraction faite, de l'intérêt général, et des arrière-pensées. Torvald l'appelle, en général "petite embarrassée" (3). Alors on se figure une jeune imprévoyante qui trébuche, et qui est encombrée par l'étroitesse de son esprit, et les limites bornées de ses connaissances. Cependant, Nora ne cesse de bouger en faisant des "bond(s)" (4). Ceci nous donne l'impression d'une adolescente

1) Maison de Poupée , acte I - P. 17 .

2) op. cit. , acte I , P. 16 .

3) op. cit. , acte 2 , P. 106 .

4) op. cit. , acte 2 , P. 107 .

Dans sa généralité insoumise et dans son abnégation singulière, elle prétend à ses porteurs qu'elle entreprend le voyage simplement, pour se livrer à elle-même. Elle s'adonne successivement son balmer pour étouffer tout soupçon et tout trouble dans son âme, pour qu'il ne doute point qu'il est en danger de mort. Ce que l'amour fait parfois comme puissante extraordinaire et comme pouvoir remarquable de sacrifices dans le cœur humain, nous fait penser à Clélia. Conti. Arrêtons - nous au premier lieu, au point décisif suivant. Les deux protagonistes, nous et Clélia, bien que filles pieuses tendres et obéissantes, sacrifient l'intérêt de leur père au profit du bien - ainsi il consacrons les éclairages sur cette attitude chez l'héroïne stendhaliennne.

En l'été 1822, Fabrice del Dongo est incarcéré à la tour Varnèse. C'est le père de son amante, la blonde Clélia Conti, qui l'a arrêté.

Par miracle, Del Dongo trouve le bonheur en prison. Car l'amour fleurit entre lui et Clélia d'une fenêtre à une voilure. Les deux amoureux expriment leur penchant dans un vocabulaire secret et limpide.....

Cependant, la passion flétrit la retenue, la sérieux et la courtoisie de la douce blonde. Bientôt, Clélia craint que le cher captif ne soit empoisonné par ses ennemis. Entre temps, la Sanseverina conçoit l'idée ^{d'évader} d'évader Del Dongo de la prison. Mais celui-ci refuse de se sauver au risque d'être empoisonné pour jouir de voir son amante à travers la fenêtre.

Pour que le captif se résigne à s'enfuir, il faudra que la jeune fille joignant ses instances à celles de la duchesse, prenne une part active à l'évasion. Altérée par le délire de l'amour, la docile fille trompe son père : elle va bientôt enlever la garnison. Clélia si vaillante, est tout à coup trahie.

insouciante . On dirait qu'elle est l'aînée de ses trois enfants .

Ibsen garde à l'héroïne sa candeur , malgré l'amertume des épreuves qu'elle a endurées pour sauver la vie de son conjoint .

Dans la nature fraîche et saine de Nora, les facultés se développent sans que rien ne vienne déranger leur harmonie . Dans l'être mûr , l'enfant avec sa gaieté, son sens limpide et droit et sa curiosité de la vie ne meurt jamais . Hélas ! Helmer a méconnu son épouse . Il est incapable d'apprécier son coeur, et son esprit incapable de lui réserver dans son estime le rang auquel elle a droit .

lui dit - il, de temps à autre, sur un ton badin : " petite folle" .

Nora n'aurait pas paru si légère , vibrant d'une étonnante chaleur, si l'auteur n'avait pas concentré des tons austères sur Torvald , chaque fois qu'il entre sur scène . En fait , Ibsen fixe

les couleurs ténébreuses sur ce conjoint imprégné jusqu'aux moelles

de préjugés et d'idées immuables . Une aura sombre enveloppe

cet homme empesé . Il redoute fort les qu'en dira - t-on , abstraction

faite, de la splendeur du sacrifice fait par sa partenaire

Il représente l'hypocrisie bourgeoise .

1) Maison de poupée acte 2 , P. 77 .

Bientôt Kroghstad est congédié de la banque . Le voici qui s'introduit clandestinement, par l'escalier de service, dans le ménage Helmer !

Dans la scène suivante la protagoniste apprend par la bonne - l'arrivée du funeste intrus . Nora va à sa rencontre . Il va faire des négociations avec elle

Le voile tombe . Enfin , le héros apprend l'âpre vérité .

A présent , Helmer menacé par le commis , s'apprête à céder devant le chantage tout en maudissant sa conjointe, c'est là qu commence le vrai drame de la protagoniste .

En somme, cet époux qui conserve sa partenaire à l'état d'objet et qui la veut entre autres, assujettie à lui et brimée par son univers masculin , s'irrite gravement et devient furieux en apercevant l'amère sacrifice palpitant d'audace qu'elle a fait pour

Dans sa rage, Helmer qui destinait son épouse aux caresses et aux jouissances puériles, la froisse d'une façon abominable .

Torvald refuse de voir en sa femme qui "faisai(t) semblant" d'être puérile , une citadelle qui a résisté aux obstacles .
ne peut tolérer que cet instrument de plaisir soit le sauveur

1) op . cit . - P. 691 .

2) Maison de Poupée - Acte 3 , P.144 .

qui a surmonté les difficultés et qui a réalisé le salut du ménage . Elle qui se réfugiait en lui , comment a - t - elle pu sauver sa vie , songe -t-il, indigné ! Plutôt qu'une citadelle , il veut qu'elle soit une épouvantaille . Au fond , il ne veut voir en elle qu'un être fragile "Je ne serais pas un homme si ton incapacité de femme ne te rendait pas doublement séduisante à mes yeux " (1) , estime-t-il .

A présent , Torvald s'acharne à cacher cette histoire-~~de~~
prunt-pour éviter le scandale . Quant au destin du ménage, il décide de garder les mêmes dehors pour sauver les apparences : Dans ce sens, l'épouse ne sera pas chassée du nid conjugal. Et le mari lui dit ~~de~~ ^à ~~la~~ ^{elle} , hautainement , ces législatons iniques et blessantes : " Mais il te sera interdit d'élever les enfants Je n'ose pas te les confier (.....) Dorénavant, il ne s'agit plus de bonheur . Mais uniquement de sauver des restes , des débris , des apparences " (2) .

En outre , il ne cesse de l'accuser d'avoir ruiné son " avenir " (3)

1) op. ; cit. , acte 3, P. 141

2) op. , cit. , acte 3, P . 139 .

3) op. , cit. , acte 3, P . 138 .

Dans son indignation, Helmer appelle son partenaire, "criminel" et il surnomme son bienfait " criminelle action " (2) .

Le fait d'être insulté et ^Popressé par la personne pour qui on a été sacrifié , nous fait penser à une situation similaire dans la Terre .

Il s'agit de la jeune offensée : Françoise , héroïne de la Elle est enceinte. Lise et Buleau veulent se débarrasser de l'enfant

Lise confia à son conjoint que La Sapin - la sorcière affirmait qu'un homme pouvait défaire ce qu'un homme avait fait : il n'avait qu'à prendre la femme en lui traçant trois signes de croix sur le ventre et en récitant un Ave à l'enve

Dans ce sens , la méchante sœur déblaye le chemin à son partenaire pour entraver la voie de Françoise, et pour la posséder ! Après cet acte infâme, la jalousie ronge l'âme. Alors, la

1) ibidem .

2) op. cit , acte 3 - P 139 .

3) La Terre , P . 160 .

perfide creva toute sa rage sur l'innocente cadette :

" C'est vrai , putain (.....) tu l'a forcé Quand je disais que tout mon malheur venait de toi ! Ose répéter que tu ne m'as pas débauché mon homme !..(-) Et l'accuse d'avoir détruit son avenir comme Torvald accuse la femme d'avoir gâché sa vie !

Hilmer agit si mal à l'égard de sa partenaire qu'elle décide , au bout de quelque temps , de désertir le domicile conjugal .

Nora ne se reconnaît plus fille d'Eve , marquée au front par un péché originel dont elle doit subir le lourd fardeau . Elle s'affranchit , et quittera le foyer conjugal , oubliant Torvald sur qui toute son attention et toute son admiration étaient concentrées , jadis ! Certes , c'était le personnage principal de sa vie !

L'héroïne émancipée , va retrouver son équilibre intérieur loin de son conjoint conformiste . Ainsi Ibsen , ce champion du féminisme , et qui s'avère l'adversaire du conformisme et de l'hypocrisie bourgeoise , fait un ouvrage de sa chair et de sa palpitation intérieure . Il y livre de grands lambeaux de

I) op. , cit. , P. 164 .

Plutôt qu'une poupée, elle est une vraie femme, ainsi l'héroïne d'Ibsen qui est le représentant de la conscience norvégienne, appartient à cette catégorie de gens que William James appelle "Twice born" : "qui naissent deux fois, la deuxième fois, étant celle de l'âme où ils jouissent de la clairvoyance intérieure. Pendant la première naissance, la vie pour ces personnes n'est que néant. Cependant, lorsqu'elles se secouent et se sondent lucidement, leur âme s'épanouit, et c'est la résurrection de l'être tout entier. Ceci signifie la transfiguration de la créature humaine en une personne mûre qui sait vivre, souffrir et aimer Ce genre de personnes demeure tout d'abord là, sans avoir encore réalisé ce qu'il va être. Il est là, immobile, au carrefour de la vie, et spectateur psychologue, il veut assister à sa marche dans le chemin de son accomplissement Dans ce sens, Nora dit à son mari après avoir décidé de partir : "Je crois qu'avant tout je suis un être humain, au même titre que toi ou au moins que je dois le devenir. (1)

Debout au carrefour de la vie, Nora cherche la route à suivre. Elle signale, en faisant allusion à sa vie quotidienne : "Je ne puis pas me trouver dans tout cela. Je ne sais qu'une chose : c'est que mes idées diffèrent entièrement des tiennes. J'apprends aussi que les lois ne sont pas ce que je croyais ;

1) Maison de Poupée, acte 3, P. 148.

mais que ces lois soient justes , c'est ce qui ne peut
n'entrer dans la tête . Une femme n'aurait pas le droit
d'épargner un souci à son vieux père mourant ou de sauver
la vie à son mari ! Cela ne se peut pas .

HELMER

Tu parles comme un enfant ; tu ne comprends rien à la
société dont tu fais partie .

NORA

Non , je n'y comprends rien . Mais je veux y arriver et
m'assurer qui des deux a raison , de la société ou de moi .

HELMER

Tu es malade , Nora , tu as la fièvre . Je croirais
presque que tu n'es pas dans ton bon sens .

Nora

Je me sens cette nuit plus lucide et plus sûre de moi
que je ne l'ai jamais été .

HELMER

Et c'est avec cette assurance et en toute lucidité que
tu abandonnes ton mari et tes enfants ?

NORA

Oui .

HELMER

Il n'y a qu'une explication possible .

NORA

Laquelle ?

HELMER

Tu ne m'aimes plus .

NORA

C'est bien cela ; voilà en effet le noeud de tout .

HELMER

Nora !... Et c'est ainsi que tu le dis ;

NORA

Cela me fait tant de peine , Torvald ; car tu as toujours été si bon envers moi . Mais je n'y puis rien : je ^{ne} t'aime plus .

HELMER , s'efforçant de garder contenance .

Cela aussi , n'est - ce pas , tu en es parfaitement convaincue ?

NORA

Absolument . Et voilà pourquoi je ne veux plus demeurer ici .

HELMER

Et peux - tu m'expliquer comment j'ai perdu ton amour ?

NORA

Certainement . C'est ce soir , quand je n'ai pas vu s'accomplir le prodige espéré . J'ai vu alors que tu n'étais pas l'homme que je croyais .⁽¹⁾

Une discorde néfaste a lézardé l'édifice conjugal de nos deux protagonistes .

1) Maison de Poupée, Acte 3, P. 149 à 150 .

Avant de clore ce chapitre , n'oublions pas de mentionner les éléments suivants que crée Ibsen en tant qu'auteur qui la structure de la pièce de théâtre conventionnelle . Ceci devait commencer par le début et se terminer par la fin des incidents, mais, crée la pièce qui commence par la fin . D'autre part , le dramaturge rompt avec une autre forme traditionnelle , quant à la composition de l'ouvrage théâtral . Ce nouveau système , vibrant de vivacité , sera suivi par Bernard Shaw "Tout d'abord la pièce se composait , de l'exposition au premier acte , précise Shaw , du noeud au deuxième acte , du dénouement au troisième acte . Mais à présent - c'est-à-dire après Ibsen - la pièce se compose de l'exposition , du noeud et de la discussion . La discussion est d'une importance primordiale .

1) op. cit., acte 3, P.152 .

Nora rend à son époux l'anneau de l'alliance Ainsi elle se détache d'un mari injuste qu'elle considère , maintenant, comme "un étranger " (1) . Ecoutons un fragment de la dernière conversation conjugale . Ce dialogue est assombri par le désespoir et le ton lugubre de la rupture maritale : " Je le vois , hélas ! , constate Helmer (.....) Un abîme s'est creusé entre nous . Mais peut - il être comblé ?

- Telles que je suis maintenant je ne puis être ta femme ,
précise la jeune épouse déçue .

- J'ai la force de me transformer .

- Peut - être Si on t'enlève ta poupée ." (2) .

La "poupée femme " (3) ne tarde pas à déserter le domicile conjugal .

Applaudissons Ibsen , ce champion des opprimés qui livre un combat salubre pour soulager les forces contraincues . Cet adversaire de l'hypocrisie bourgeoise affranchit la jeune épouse dont l'héroïsme vibrant de sacrifice, est considéré

par le conjoint comme un affront ! Ne l'a - t - il pas accusée d'avoir commis mille horreurs " tu as détruit mon avenir , tu as anéanti tout mon bonheur " (4) débitait -

il , souvent ! .

1) Maison de poupée , acte 3 , p. 154 .

2) op. cit. , acte 3 , p. 152 .

3) op. cit. , acte 3 , p. 154 .

4) op. cit. , acte 3 , p. 138 .

La pure Violaine donne un baiser de charité à Pierre, un lépreux qui
ge des cathédrales. C'est le messager de Dieu.

Mara dénonce sa frangine à Jacques, son fiancé...
Elle lui dit que Violaine l'a trahi pour un lépreux à qui elle a donné
baiser, clandestinement...

Cette jeune fille veut compromettre sa sœur pour épouser Jacques qu'elle
aime depuis longtemps.

Bientôt, fourrée dans une cachette, Mara apprend la décision de son
qui compte partir pour Jérusalem : " Jacques épousera Violaine." -I- Alors

la cruelle accourt vers sa mère et lui donne des ordres au sujet de
sœur :

" Va et dis-lui qu'elle ne l'épouse pas.....

..... (....)

J'étais là. J'ai tout entendu.

La mère

En bien, ma fille ! c'est ton père qui le veut.
Tu as vu que j'ai fait ce que j'ai pu et on ne le fait pas changer d'idée

Mara

Va-t-en lui dire qu'elle ne l'épouse pas, ou je me tuerai

(....)

Je me pendrai dans le bûcher,

I- L'Annonce faite à Marie , Acte I, - P.49

où l'on a trouvé le chat pendu," (1)

La mère dérouterée, s'unira à sa méchante fille pour obliger la douce aînée à refuser le mariage !

Dans ce sens, Elisabeth conspirant contre Violaine, dit à Mara :
Je [lui] répèterai(....) ce que tu as dit," (2)

Dans une inversion des rapports entre mère et fille, la mère récite à Violaine ce que Mara lui a dit. Elle suit docilement les ordres de sa fi

Dientôt, le père amène Jacques chez lui au foyer pour confirmer le projet de mariage de son aînée avec lui.

" C'est toi, Jacques, maintenant
toi, (...) rendres (la justice) à ma place.
C'est toi que j'ai choisi. C'est toi que je mets sur Combernon à ma place

Comme le jeune homme proteste gentiment, Anne Vercors insiste:
" C'est toi qui seras le père ici à ma place ". (4)

A entendre ces mots suaves, Violaine éprouve une grande béatitude, d'autant plus qu'elle adore son fiancé.

Elle palpite de l'ardeur naïve de la joie amoureuse.

" Je te donne ma fille Violaine, repart le tendre père. Aime-la, car e

-1- op. cit., acte I, P.59 à 60.

-2- op. cit., acte I, P.65.

-3- op.cit., acte I, P. 70.

-4- op. cit., acte I, P. 71.

est nette comme l'or (...) Elle est simple et obéissante, elle est sage
et secrète " (1)

Mélas ! Une fois le père parti, la cruelle Mara va tout bouleverser
dans l'intention de rompre le projet de mariage - comme on l'a déjà dit

Elle fait de sa mère sa complice. Toutes les deux conspirent contre
pauvre Violaine !

Saisie d'une coupable faiblesse, la mère a délité à Violaine ce que
méchante fille lui a soufflé.

Elle confirme à cette dernière - la cadence perfide -
qu'elle a tout dit à son aînée :

" et le reste sans y rien changer , précise-t-elle, comme tu me
fait réciter : Jacques et toi : que tu l'aimes et tout. " (2)

La mauvaise Mara va à la rencontre du fiancé de sa sœur, soit-disant pour
le féliciter :

" Vous parlez de Violaine ? débite-t-elle.

Je rougis de cette petite fille.

Il est honteux de se donner ainsi,

Âme, chair, cœur, peau, le dessus, le dedans et la racine. " (3)

Jacques rompt avec sa fiancée. En même temps, Mara s'apprête, clandestin
ment à l'épouser. Elle veut s'emparer de tout... Dans leurs coutumes, l'aîné
doit se marier la première.

(1) op. cit., acte I, P. 74 .

(2) op. cit., acte I, P. 86.

(3) op. cit., acte I, P. 92 .

Face au droit d'aïnesse, elle oppose le droit du désir : "les choses se sont à soi que l'on a faites ou prises ou gagnées ", constate-t-elle. Elle évoque Louis Turelure (Le Pain Dur) là où il déclare : " Il n'y a de vrai propriété que celle qu'on a volée parce qu'on en avait tellement envie. "

Cependant, déchue des cimes de l'allégresse, l'ex-fiancée, se sent brisée.

A travers l'ouvrage, Violaine, ce jardin de vertus, semble un être d'exception, un délégué de la masse humaine pour une représentation de la vie sur un plan supérieur et symbolique. Toutefois, le complot des siens, et la privation qu'ils lui imposent la déçoit d'une manière lamentable. Elle gît dans une marée d'amertume. C'est que bien qu'elle fasse un miracle vers le dénouement, le dramaturge tient à lui garder une face humaine.

L'humanisation de l'héroïne est une constante qui revient sous la plume de Claudel.

A travers l'étude de la pièce nous allons prouver, à maintes reprises cette conception. Commençons par le début... Avant le complot de sa famille cette jeune fille avait l'insouciance joviale de ces dix-huit printemps basée sur une vision aisée et limpide du monde. Elle avait la tendresse l'abandon candide aux élans du cœur.

Jadis, elle ^{a connu} le désir et le trouble des sens. Elisabeth signale cette "première surprise de l'amour" que lui a fait l'architecte l'année dernière ...

Un an passe .

Elle aime Jacques féroce-ment.

Elle s'apprêtait à l'épouser avec beaucoup d'ingénuité et d'enthousiasme.

La timidité de ses répliques à son futur (: " C'est le père qui va
je veux bien aussi)

se justifie par la pudeur et la décence, et non par l'indifférence.

Peu après, ses sentiments se trahissent :

" Mais moi, Jacques, je ne vous aime pas parce que cela est juste.

Et même si cela ne l'était pas, je vous aimerais encore et plus (2)

Notons l'apparition céleste de Violaine le jour des fiançailles.

Elle porte une robe blanche comme un ange, toutefois elle évoque tous les désirs physiques.

Hélas ! Tout d'un coup l'espoir s'estompe.

Voyons comment cette femme de justice, de générosité a été condamnée.

Concentrons l'éclairage sur la scène de la rencontre de notre héroïne
l'architecte lépreux. A la grange de Combernon,

dans la région de Reims, Violaine rencontre un matin de Mai, Pierre de Craon. Il est en train de construire la cathédrale. C'est alors qu'il
te une nouvelle abominable. ...

(1) op. cit., acte 2, P. 75.

(2) op. cit., acte 2, P. 107.

Il est atteint de la lèpre.

Sa douce compagne lui souhaite le repos de l'âme.

Écoutons leur entretien affectueux.

Pierre de Craon:

Violaine, je suis bien malheureux !

Il est dur d'être un lépreux et de porter avec soi la plaie infâme et de
savoir que l'on ne guérira ^{Pas} et que rien n'y fait,

mais que chaque jour elle gagne et pénètre, et d'être seul et de support
son propre poison, et de se sentir tout vivant corrompre! ⁽¹⁾

La jeune fille l'écoute.

Violaine est du genre qui fait triompher la paix sur le tumulte et la
bonne humeur des enfants de Dieu sur le sens tragique. Ainsi elle cherche
toujours à apaiser le prochain.

Entendant que l'âme errante de Pierre attend que vienne la toucher quelque
être humain, elle lui offre l'anneau d'or qu'elle a reçu de Jacques. Et
lui passe ce bijou, comme don pour la cathédrale qu'il érige. A savoir que
l'idée première, vitale chez ce maçon lépreux, est l'amour de la cathédra
le et de son architecture. ⁽²⁾

Émue jusqu'aux larmes par le chagrin de son compagnon, la donatrice lui
donne un baiser fraternel sur le front. Ainsi une lueur de commisération et
d'affection émane de cette vierge, enivrant le maçon affligé.

(1) op. cit., prologue, P. 31.

(2) Ce trait évoque la glorification de la cathédrale dans Notre Dame
de Paris.

Violaine, cette passagère de haute altitude terrestre et morale, a
pli un acte sublime pour soulager un homme ulcéré et désespéré.

Hélas ! ce geste purement religieux, dépourvu de toute arrière - pensée
sensuelle, sera mal interprété.

Ainsi Jacques condamne injustement, sa fiancée :

" Mara vous a vu de ses yeux, l'accuse-t-il.

Et elle m'a tout dit comme c'était son devoir ".⁽¹⁾

" Infâme, la nomme-t-il,

Réprouvée dans ton âme et dans ta chair."⁽¹⁾

La protagoniste sera contrainte, sans retard, de se détacher de son
bien qu'elle aime beaucoup.

Violaine qui a une auréole de vierge paisible, de créature candid
d'amoureuse innocente, se trouve souillée et compromise - injustement.

Elle n'arrive pas à prouver son innocence.

Ces lacunes déblayent le chemin, d'avantage, à sa cruelle sœur qui file
ses mains sacrilèges le fond du drame.

Cependant sa médisance fraye un chemin sou
dans les pensées de Jacques. Entre ces deux sœurs opposées, entre ce
faces si riches et si complexes, Jacques semble un peu pâle et bousc

La cadette fait si bien que les fiançailles s'altèrent par la méfian
Déchaînée, elle élabore sa course de bête débridée, insoumise au mor
aux rênes. Mara qui s'avère le principal ressort de la pièce, provoqu
rupture définitive des deux amoureux.

1- op. cit. acte 2. , P. II6.

2- op. cit. acte 2. , P. II4.

Traquée de tous côtés, surtout après le départ de son père, la do-
Violaine va, bientôt, désertar le café

Après sa condamnation, elle se voit vilaine... Elle of-
non sans peine, à elle-ci, le rôle de la mère : " Oh, oh ! ma pauvre roi-
de mariée qui était si jolie ", dit-elle, avec amertume.

Toutes les plaintes que lui apporte le sort, prouvent l'attachement
de notre héroïne à ce monde.

Avant son départ, la rancune se dévoile dans la raillerie âpre et
poignante des adieux de Violaine à sa mère et à Jacques ...

Mais en somme, Violaine s'avère presque passive dès que la rivale
entrée en scène. Cependant, la femme se crasse, en général, à son amour
dès qu'une concurrente accède aux côtés du bien-aimé. L'exemple de
Vince⁽³⁾ est bien significatif à cet égard. Cette fillette de parents
souffre de l'amour qui l'allie à son Phil. Car leur douce entente de
dis, se réduit à l'âge ingrat en " humeur dramatique " ⁽²⁾ et en gest-
crispés.

Elle est ballotée entre sa réticence chaste d'enfant revêché, et le
besoin de garder Phil à elle seule.

Elle ne veut pas céder à l'appel muet de son compagnon.

L'atmosphère est si alourdie de tension qu'un jour, elle songe à
suicide. Elle faillit le faire ... Elle s'abstint au dernier instant

Bientôt, une rivale apparaît. Or les feux de la jalousie alerte la
petite. Elle s'évertue à arracher le bien-aimé de la quémandeuse qui
autour de lui.

(1) op. cit., acte 2, P. 131.

(2) Le Blé en Herbe, P. 265.

(3) Vince est l'héroïne du Blé en herbe.

(chez Vinca l'intuition de l'acte éphémère se... Désormais, elle

dresse ses sens bien énergiques en, afin de sonner la cloche

de Philippe Tel est l'effet du dépit sur le czar d'Ev

De passive, elle se réduit en une héroïne militante - voire agressive

quête du salut du couple, reprenant son homme de la ravisseuse. Pour

faire, Vinca abandonne même ses "jeux garçonnières" qui ne cédaient

devant sa passion prématurée.

Elle s'attache, de plus en plus, à ménager le salut du couple.

Entretiens, Philippe trahit clandestinement son amie avec Camille
est instruite.

On est déjà le 5 Septembre. A ce point, la fillette dotée d'une
dureté et de la fermeté puériles, s'acharne à présent à maintenir
homme même au détriment de son amour-propre. Cette scène est bien s
cative à cet égard.

Un soir, Phil rejoint son amie et se met à l'agacer par quelque
Mais rassasié, il s'excuse... Elle garde silence.

Le bien-aimé lui reproche, alors de se laisser " malmener " (1) B
quelle raison, se demande-t-il. Alors elle le toise d'un regard
femme sagace : " Pendant que tu me tourmentes, dit-elle, au moins t
là ... " (2)

Il est monstrueux ce mot dans la bouche d'une enfant! Les douleurs
la passion et le dépit ont vite fait, de tarir chez elle la dignité
et le fier désintéressement, propres à l'extrême jeunesse!

Tout ce que fait Vinca trahit ses dispositions à endurer toutes
offenses, voire les humiliations pour garder Phil à elle seule, puis
ravisseuse rôde autour de lui. Alors que la pervenche reprend son Hou
la ravisseuse, l'héroïne claudélicienne, se trouve, injustement privée du sien.

(1) Le Blé en Herbe, P. 282.

(2) op. cit., P. 293.

Après sa condamnation, Violaine se retire dans la forêt dans une grotte. Personne ne vient la visiter dans sa retraite. L'entourage la considère comme morte. La sœur ne lui adresse pas l'aumône d'une visite, voire d'un affectueux.

Elle est bien cruelle cette Mara. A la comparer à d'autres personnages qui ont passé par une situation similaire, on constate qu'elle est d'une brutalité intolérable.

Il arrive que deux membres d'une même famille s'attachent à la même personne, comme c'est le cas dans "L'Annonce faite à Marie". Alors, chaque parti s'acharne à s'accaparer l'objet-aimé. Mais à l'inverse de l'attitude de Mara, là ⁽¹⁾chacun tiendra à ménager son rival et à lui épargner toutes peines possibles. Le roman de La Symphonie Pastorale illustre cette tendance.

Il s'agit d'un père et d'un fils, tous deux épris de la même adolescente. Pour bien saisir notre conception du ménagement, concentrons les éclairages sur les rapports affectueux qui unissent le père et le fils à Gertrude...
Ayant accueilli une infirme, ^{le Pasteur} l'étreint de sollicitude et de tendresse.

Il se produit que l'amour naît insidieux de familiarité candide entre pasteur et sa protégée. La naissance de ce sentiment lui est peut-être insensible. Il débute par la pitié, passe par la charité.. Il suit sa voie naturelle durant laquelle le prêtre se glisse malgré les objections de la famille et surtout en dépit de la désapprobation de son épouse. Elle tit sans que le prêtre s'en rende compte à un amour profond pour la belle infirme. La preuve c'est qu'à chaque fois qu'il l'aperçoit, il ressent une allégresse insigne à tel point qu'il souligne " jamais sourire d'aucun de mes enfants ne m'a inondé le cœur d'aussi séréphique joie que fit cel que je vis poindre sur ce vieage " (2)

(1) Gide La Symphonie Pastorale, éd. Gallimard, Paris, 1965.

(2) op. cit., p. 76.

Cependant, Jacques le fils du prêtre, est épris de la pupille.

Quand Jacques confie à son père son idylle et son désir de se marier avec l'aveugle, le prêtre se trouve étreint de tristesse. Son cœur semble crispé. Sans pénétrer les raisons de l'âpre amertume que lui cause cette nouvelle, Pasteur refuse de consentir et obtiendra de son fils d'éviter la voie de la pupille. Pendant cette période, Pasteur ignore encore, la nature authentique du chant qui l'attache à l'infirme. D'ailleurs, il évite de se sonder. Il paraît aisément que, puisqu'il ne veut pas chercher à savoir, c'est qu'il ressent une gêne clandestine. Entretemps, il déclare avec une mauvaise foi à sa pupille : " Le mal n'est jamais dans l'amour " (1) En somme, le prêtre s'efforce à éloigner son fils de la jeune fille. Il allègue qu'il écarte ce dernier de ne pas " porter le trouble dans l'âme pure de Gertrude " (2).

En tant qu'éducateur rigide il dit à son rival de fils de ne pas " abuser l'infirmité de l'innocence, de la candeur, c'est une lâcheté dont il ne l'aurait jamais cru capable " (3) " J'aime Gertrude, assure le jeune homme, et j respecte autant que je l'aime " (3)

Le père mal intentionné, amena son fils au jardin où il lui dit : " T'es-tu déclaré à Gertrude ? Non, répondit celui-ci, peut-être sent-elle déjà mon amour mais je ne lui ai point avoué .

- Et bien, tu vas me faire la promesse de ne pas lui parler encore ... Je ne trouve l'enfant que j'aimais. " (4)

Dans le deuxième cahier où le héros se confesse... il reconnaît, lucidement qu'il aime.

Le 18 Mai, le ministre et Gertrude dans une sorte d'extase agréable se

(1) op. cit., P. 98.

(2) op. cit., P. 76.

(3) op. cit., P. 76-77.

(4) op. cit., P. 79.

... les deux frères, Jacques et Rodin, se disputent la main de la jeune fille. Jacques, le plus âgé, est un homme d'ordre, un homme de bien, qui a fait ses études et qui a une situation. Rodin, le plus jeune, est un homme de lettres, un homme de talent, qui a fait ses études et qui a une situation. Les deux frères se disputent la main de la jeune fille, mais elle ne veut épouser ni l'un ni l'autre. Elle aime Jacques, mais elle ne peut épouser Jacques parce qu'il est trop sérieux. Elle aime Rodin, mais elle ne peut épouser Rodin parce qu'il est trop fantasque. Elle se sent libre, elle se sent heureuse, elle se sent aimée. Elle ne veut pas se marier, elle ne veut pas se compromettre. Elle veut vivre, elle veut aimer, elle veut être aimée. Elle veut être libre, elle veut être heureuse, elle veut être aimée. Elle ne veut pas se marier, elle ne veut pas se compromettre. Elle veut vivre, elle veut aimer, elle veut être aimée. Elle veut être libre, elle veut être heureuse, elle veut être aimée.

Après le thème de la femme indépendante qui illustre la retraite définitive de l'héroïne dans la forêt, sous le regard de l'innocence faite à l'homme, on ne peut attendre d'elle. On ne peut attendre d'elle, dans une certaine mesure, dans une épreuve vécue. Au fond, Violaine continue l'hymen interdit de l'homme et de sa femme, Camille. Le fait est que Camille était digne de sa sœur. C'était un amour inaccoutumé. Le fait est que il y a le thème de la femme inaccessible, car il ne pouvait pas épouser Camille. Remontons le fil du temps vers l'enfance du drame. Il y a une sœur Camille. C'est une personne égale, une artiste. Lui est fin, et il a le goût des lettres. Il y a une complicité entre le frère et la sœur, surtout que l'atmosphère au foyer est troublée. Ils se confient le tumulte intérieur.

Pour l'auteur, Camille était la sœur de Jacques. Bientôt, elle devient violente, elle devient obstinée, d'une ironie acerbe. En même temps, elle était d'une belle femme. Elle était capable d'une grande tendresse. C'est ce que cherchait Camille. Elle était intelligente. Elle ne rendait compte de ce besoin. Elle était égoïste. Elle est parfois amoureuse, parfois méprisante. Mais leur liaison est une à jamais chaste.

Au fur et à mesure que son besoin d'affection grandit, le sentiment amoureux de sa sœur vers un autre s'approfondit. Elle découvre sa tendresse de son frère. Elle aime Rodin. Avant celui-ci, elle s'était attachée à Lebusay.

Ce que Violaine fait pour Henri (elle a renoncé à tout pour elle son fiancé, sa vie) coïncide avec ce que le drame veut faire pour sa femme.

Concernons les déclarations sur son situation quand elle est : Violaine - Henri - le fiancé - Camille - Rodin

Dans son journal, Camille évoque son remords à l'égard de sa sœur. Il aurait voulu la sauver, mais il n'a pas pu.

1) La Symphonie Pastorale, p. 98.

(1) leur est profonde ", médite-t-elle.
La marche de la lèpre est foudroyante. Elle finit par tarir la vie patiente. Dans l'Annonce le mal continue à agir sur cette dernière " qu'il y aura une parcelle de chair mortelle à dévorer ". (2)

Enfin, la lèpre pourrit le corps, mais elle épure l'âme. Ce que ne perd la chair, elle le gagne en sainteté. Ceci prouve la prééminence de l'âme sur le corps futile et destructible. Cette pièce est de la conquête de l'esprit sur la chair. Le sens du symbole s'inverse. La lèpre devient emblème d'éléction. Elle envahit et éprouve ce que Dieu s'est choisi. Elle devient, en quelque sorte, une source de grâce. Cette maladie est une vocation à la sainteté, trouvant en cette jeune fille un terrain favorable. Dieu s'est réservé une part en Violaine en Pierre.

Les années passent.

Depuis dix ans, la recluse vit, seule, dans la forêt, désertée de tous humains. Les gens la voyaient d'un œil, plutôt hostile. Écoutons l'un des habitants qui se plaint de la présence de Violaine: " c'est ennuyeux d'avoir près de chez soi, cette varmine (3) de gens (4) "

C'est la commune qui est chargée de la nourrir. Comme il n'y a pas de contact humain avec elle, on a oublié, une fois de nourrir du pain ce corps péri! Comme on vient de se rappeler ce fait, un paysan lui jeter de loin, un bout de pain glacé. " Hé! Sans-figures! Hé! là, que je dis! Hé! là, la divoarrée ", (5) dit-il.

Sur ce, la silhouette sombre de Violaine apparaît sur la neige. Elle

(1) L'Annonce faite à Marie, acte 3, P. 116.

(2) op. cit., acte 3, P. 164.

(3) Claudel maintient la couleur locale. Ainsi le paysan dit "varmine" je vas ..."

(4) L'Annonce faite à Marie, acte 3, P. 147.

(5) op. cit., acte 3, P. 149.

à briser les murs par terre. Elle est tout d'un michon de
air gris, elle le ramasse avec révérence. On a plus ou moins l'imag
un animal. Elle se replonge dans les ténébres.

En somme, la vie de cette lépreuse ressemble "à la tombe". (1) Pour
bonne, même les siens, ne daigne lui faire l'aumône d'une visite, perso
ne n'a la condescendance de lui dire quelques mots tendres. Cependant,
elle parvient à force de puissance et de bonne volonté à se perdre dan
s'extase religieuse pure. Elle prêche pour les animaux qui s'unissent
iblement autour d'elle...

Au bout de sept ans, Mara a recours à sa frangine au sein du bois. Ell
la rejoint pour qu'elle lui ressuscite sa fillotte qui vient de mourir

Mais la recluse lui souligne qu'elle ne peut réaliser son désir, car
elle n'est pas une sainte: " Pourquoi ne me laisses-tu pas en paix?,
proteste-t-elle. Pourquoi viens-tu ainsi me tourmenter dans ma tombe "

Mais l'intruse insiste. Elle confie le corps froid à sa sœur.... Cepen
dant, elle l'apitoie sur son sort, disant qu'elle est sa suppliante,
et qu'elle s'est sauvée loin de ceux qui ont voulu lui enlever ce cad
vre chéri. Elle s'acharne à l'obliger à donner vie à la morte: " Rendi
moi cet enfant que je t'ai donné! lui dit-elle (...) aie pitié de moi
(3)
Violaine!"

" Ce lait qui me cuit aux seins, report-ello, il coule vers Dieu com
le sang d'Abel! " Est-ce que j'ai cinquante enfants à m'arracher
du corps? est-ce que j'ai cinquante âmes à m'arracher de la mienne? "
(...) Et quand j'aurais cent enfants, ce ne serait pas ma petite Auba
La recluse a la foi, le souffle et la fermeté qui n'exclut point la t
dresse mais prouve la santé d'esprit. Ainsi elle ne tarde pas à réin

(1) op. cit., acte 3, P. 125

(2) ibidem.

(3) op. cit., acte 3, P. 173

(4) op. cit., acte 3, P. 169

le bébé à l'aurore!

Alors que du point de vue emblème des hommes, Violaine est l'image de Camille, du point de vue symbole religieux, elle représente la Vierge. Claudel est de ces auteurs chez qui ne subsiste plus aucune distance entre spiritualité et littérature. C'est justement ce lien profond de la foi et de l'humanité qui lui confère son aisance, sa densité et sa finesse remarquable.

Quant à l'enfant restitué, il porte une goutte de lait sur les lèvres.

Le prénom d'Aubaine procède d'un signe symbolique. Il fait allusion à l'enfant de l'ango qui porte une âme nouvelle et un avenir reconcilié.

La résurrection d'Aubaine nous fait penser à celle de Lazare - frère de Marie - rapportée par l'Écriture Sainte ...

Après la résurrection d'Aubaine, les prunelles du bébé deviennent bleues comme celles de sa tante. A savoir que les yeux noirs du nourrisson était le seul trait de similitude entre lui et sa mère. Mara incarne la noirceur même. La goutte de lait est le symbole de la maternité.

La résurrection, et le nouveau coloris des yeux font d'Aubaine, fille de Mara et de Jacques, la fille aussi de Violaine! Cette restitution couronne l'héroïne d'une sorte de maternité virginale. Violaine comme Marie a répondu à l'appel du Ciel... comme elle, elle est à la fois vierge et mère! Violaine à la fois vierge et mère ^{réconciliée} Marie et le Christ qui a le don de ranimer.

Bientôt, Aubaine ouvre les yeux et se met à pleurer. Mara l'observe mutuellement... " quelle est cette goutte de lait que je vois sur ses lèvres ", dit-elle. C'est alors qu'elle se rend compte que sa frangine est devenue la mère de sa fille. Saïste de cécité intérieure, la cruelle mandit sa cœur: " Et le cri de Mara (...) et le rugissement de Mara et lui aussi s'est fait chair au sein de cette horreur, au sein de cette enluminure, au sein de cette personne en ruine, au sein de cette abominable lépreuse! "

Elle lui arrache la fillette... Minée par des forces brûlantes et la volonté de haine, l'ingrate rugit: " Et fallait-il que mon enfant qui est à moi fût coupé en deux et qu'il eût deux mères? L'une pour le corps et l'autre pour son âme? " (3)

(1) L'Annonce faite à Marie, acte 1, P. 124.

(2) op. cit., acte 4, P. 203

(3) op. cit., acte 4, P. 211.

Saisie d'astigmatisme mental, la cruelle intruse, ne voit pas que la donatrice s'est employée de tout son souffle et de toute son âme à la soulager, et à ranimer sa fille unique.

Ce monstre qui jamais ne s'apprivoise souscule au sein dans un "trois-sable", Elle commet cet acte pour qu'elle ne partage plus ni l'amour ni la maternité de sa fillette à qui une ressemblance miraculeuse l'un: désormais.

Pour la ~~deuxième~~ fois, Mara, ce personnage de violence, martyrise sa sœur. Cette fois-ci le mal qu'elle lui inflige est plus grave que celui d'avant. Il est presque funèbre.

Le mal qu'elle fait à la donatrice est, pour ainsi dire, en proportion du bien que celle-ci lui avait accompli!! Certes, cette fois-ci, le bien fait est formidable puisqu'elle a ressuscité le cadavre. A savoir que la sage-femme avait prévenu ^{la} mère qu'elle ne pourra plus avoir d'enfants! Ce dernier acte fratricide de Mara évoque ce qui ont commis les frères du prophète Joseph au sujet de celui-ci.

Joseph comme Violaine se trouve écarté de son père.

Au bout de huit ans, Anno Versora quitte Jérusalem...

De retour au village natal, il rejoint tardivement, péniblement, sa sœur Violaine. Puis il retourne chez Mara. L'aînée pardonne à la cadette.

Si le dramaturge accentue les péchés contre Violaine, et s'il tente à maintenir le visage humain de notre héroïne, jusqu'à la fin, c'est à mettre en valeur le pardon qu'elle accorde à sa cruelle sœur.

Ainsi comme on le voit c'est Violaine qui occupe le centre du récit . Elle seule est présente tout au long de la pièce et opposée à tous les autres protagonistes . Son caractère est l'unique qui évolue du début jusqu'à la fin du drame . Avant d'approcher les rivages du détachement total et du perfectionnement de l'âme , elle a enduré beaucoup de peines.

Ceci prouve que le sacrifice qu'on lui a imposé et qu'elle n'a pas voulu , lui était difficile . La coupe du sacrifice fut pénible jusqu'à la dernière goutte .

A l'agonie , la jeune fille murmure à Jacques après lui avoir fait répéter ceci : " ces mots que j'ai tant aimés : chère Violaine ! douce Violaine ! " " Si vous aviez cru en moi, qui sait si vous ne m'auriez pas guéri⁽¹⁾ ? " Cette scène prouve que l'ascension vers la sainteté, et même vers le renoncement, palpitant de dévouement et d'abnégation, s'est accomplie avec quelque déchirement !

(1) op. cit. , acte 4 , p. 215.

troisième partie ANNE LARSEN, le personnage de Bonjour Tristesse de Sagan

ANNE LARSEN est un modèle à suivre; c'est un trésor de

vertus et de lumières. Elle est pleine de richesses intarissables. C'est la fille du Héros. avait toujours vu en elle " l'assurance, l'élégance, l'intelligence." (1) Elle la respectait. Aussi disait-elle souvent : " Anne donnait aux choses un contour, aux mots un sens que mon père et moi laissions volontiers échapper. Elle posait les normes du bon goût, de la délicatesse." (2)

Bientôt, Raymond proposa à Anne le mariage. L'adolescente envisagea leur vie nouvelle subitement équilibrée par l'intelligence, le raffinement d'Anne, cette vie qu'elle lui enviait des amis intelligents, délicats, des soirées heureuses tranquilles." (3)

Cependant, elle pense qu'Anne est inconmode, car elle l'empêche de fréquenter Cyril et de négliger la révision des études, ~~de continuer~~ la préparation de l'examen de repasse. Mais se trouvant injuste, elle se dit que ce jugement "était stupide et monstrueux et qu'[elle] n'était qu'une enfant gâtée et paresseuse, et qu'[elle] n'avait pas le droit de penser ainsi." (4)

Mais "je continuais, note-t-elle, malgré moi à réfléchir qu'elle était nuisible et dangereuse et qu'il fallait l'écarter de mon chemin." (5)

1) Bonjour Tristesse, p.68.

2) op.cit., p.23.

3) op.cit., p.68.

4) op.cit., p.76.

5) op.cit., p.76.

Essayons d'expliquer ce paradoxe, comment d'une part est-elle, Anne superbe, et d'autre part, elle veut l'éliminer de sa voie?

C'est que Anne compte épouser le père, et de la sorte, elle va aliéner la liberté outrée de Cécile. Elle va battre en brèche leur vie "de bohème". Elle va estomper "l'insouciance, qui est le seul sentiment qui puisse inspirer" (1) l'existence des Raymond. Déjà, elle lui impose le devoir scolaire, elle s'efforce à atténuer le désordre où elle vit en érigeant les coutumes de vie réglée.

Bref, Anne cherche à perfectionner leur vie. Or, à cette passagère de haute altitude terrestre et morale, bien assurée de la sécurité de sa route, Cécile va tendre un piège elle va la bousculer.

Éliminer Anne s'avère un leitmotiv dans Bonjour Tristesse. Presque, à chaque tournant de page des derniers chapitres, Cécile conspire contre elle. Ainsi, se débarrasser d'Anne devient le grand espoir de Cécile.

L'héroïne semble trouver dans cette idée la délivrance et la joie parfaite. mais au bout de quelques mois, elle s'apercevra qu'elle est doublement illusoire.

(1) op.cit. p.76

Ann compte faire de Cécile et de son père des êtres
"bien élevés"(1).

Pour approuver l'entrepreneur, elle vient d'Anne, comme un peu
de gens de vie de Raymond et de son raisonnement
crusac parfois, la perversité qu'il met dans les filles.

Le père "était léger, d'un légèreté sans remède"(2).
Sa frivolité bannait tous ses chers et les ses pleurs.
Dans ce sens, il annonça en accueillant Cécile dans la
pension, il y a deux ans, qu'elle allait être pour lui "le
plus cher, le plus merveilleux des jouets"(3).

Certainement, le mot "jouet" dans ce contexte a une
nouvelle raisonnable-fond et forme, au sens de "blé en
herbe". Il résiste tout ce parti-pris d'amusements et de
futilité et une conception dépourvue de toute profondeur.

Bientôt, le père et sa fille ont un lot de "complicité".
Ils rentrent souvent à l'aube à Paris. Ils intriguent en-
semble, et la liste des intrigues est très longue.

Comme son père explique tout en comptant sur les débats,
Cécile adopte ce système. Elle va juger les gens d'après les
apparences. Dans ce sens, elle souligne : "Sans partager avec
son père cette aversion pour la laideur qui nous faisait sou-
vent fréquenter des gens stupides, j'appréhendais en face des
gens dénués de tout charme physique, une sorte de gêne et
d'absence. Leur résignation à ne pas plaire, me semblait
une infirmité indécents"(4).

Comment admettre que les limites arbitraires des traits
d'un visage soient le critère de la personnalité?

Lorsque Raymond parlait de l'amour à sa fille, il en
parlait sûr un ton badin. "Il refusait systématiquement,
relatée-t-elle, les notions de fidélité et de gravité d'enga-
gement"(5). Ces idées équivoques imprégnaient Cécile...

"Amours rapides, violentes et passagères"(6). Cette façon
d'envisager les choses délectaient la petite et la guidait
à la longue vers un chemin pervers de sa vie.

1) Ben Jeur Tristesse, p. 72.

2) op. cit. p. 162.

3) op. cit. p. 32.

4) op. cit. p. 16.

5) op. cit. p. 77.

6) op. cit. p. 24.

Raymond fréquentait des "femmes frivoles et un peu sottes"⁽¹⁾. La bêtise de ces dernières ne le gênait guère puisque "l'inconstance [...], la facilité"⁽²⁾ étaient ses traits saillants.

Il hébergeait, souvent une femme dans sa maison. Parfois lui, sa fille et la belle se promenaient ensemble en chemin La jeune fille ne se sentait ni gênée, ni troublée par "cette curieuse famille à trois"⁽³⁾. Cécile voyait que son père ne faisait pas des contraintes à ses amourettes. Il se contentait de ne pas les dissimuler, plus précisément de "ne rien [lui] dire de convenable et de faux"⁽⁴⁾ pour expliquer la fréquence des repas de telle jeune femme, ou son établissement total par bonheur momentané. Parfois, il avait recours à sa fille pour remédier aux fautes qu'entraînaient ses aventures sentimentales. Elle était sa "complice".

"Mon vieux complice, que ferais-je sans toi?"⁽⁵⁾ Ce mot du père qui se complait, dans une certaine mesure, dans les élans de l'insouciance en y traînant sa fille, raisonne à travers le livre. Le genre de vie imprégnait parfois Cécile d'un "cynisme désabusé sur les choses de l'amour,"⁽⁶⁾ effet néfaste pour l'extrême jeunesse. En somme, elle endure une "carence sentimentale"⁽⁷⁾.

Influencée par ces effets funestes, elle ruminait souvent, la recette d'Oscar Wilde: "Le péché est la seule note de couleur vive qui subsiste dans le monde moderne". Je la faisais mienne avec une absolue conviction⁽⁸⁾. Elle songeait que son existence pourrait être quasi pareille à cette formule et s'y adapter.

(1) op. cit., P. 163.

(2) op. cit., P. 162.

(3) op. cit., P. 163.

(4) op. cit., P. 15.

(5) op. cit., P. 21.

(6) op. cit., P. 34.

(7) op. cit., P. 47.

(8) op. cit., P. 34.

Nous citons ici les principaux Oeuvres de Sagan

A - Romans

- Bonjour Tristesse éd. Julliard, Paris, 1952.
- Un certain sourire éd. Julliard, Paris, 1956.
- Dans un mois, dans un an éd. Julliard, Paris, 1957.
- Aimez-vous Brahms éd. Julliard, Paris, 1959.
- Les merveilleux nuages éd. Julliard, Paris, 1961.
- La chamade, éd. Julliard, Paris, 1965.
- Un peu de soleil dans l'eau froide éd. Julliard, Paris, 1969.
- Le Garde du coeur éd. Julliard, Paris, 1972.
- Les bleus à l'âme éd. Julliard, Paris, 1972.
- Le Piroli perdu éd. Julliard, Paris, 1973.
- Les yeux de boie (nouvelles), éd. Julliard, Paris, 1975.
- Le lit défect éd. Julliard, Paris, 1977.
- Le chien couchant éd. Julliard, Paris, 1980.
- La femme fardée éd. Ramsay Paris, 1981.
- De guerre lasse éd. Julliard, Paris, 1985.
- Avec mon meilleur souvenir éd. Julliard, Paris, 1984.
- Un songe d'égarement éd. Gallimard, Paris, 1987.

- La danse de la mer . . . 1888
- Soljess le constructeur . . . 1892
- Quand nous nous révélions d'entre les morts . . . 1899

Works on Ibsen

ARCHER, WILLIAM: *Playmaking. A Manual of Craftsmanship*. Chapman and Hall, London, 1913. This contains a useful analysis of Ibsen's dramatic techniques.

DOVE, A. W.: *Ibsen. The Intellectual Background*. Cambridge University Press, Cambridge, 1946. This discusses the political and philosophical context of the plays.

FOAN, MICHAEL: *Ibsen. The Critical Heritage*. Routledge and Kegan Paul, London, 1972. This is a survey of early criticism of Ibsen in English.

FRIDE, ROSE (EDITOR): *Twentieth-Century Views of Ibsen*. Prentice-Hall, Englewood Cliffs, New Jersey, 1965. A useful collection of critical essays.

KNIGHT, G. WILSON: *Ibsen*. Oliver and Boyd, Edinburgh, 1962. This is a stimulating, rather personal introduction to the plays by a famous literary critic.

MCRAE, JAMES (EDITOR): *Henrik Ibsen. A Critical Anthology*. Penguin Books, Harmondsworth, 1970. This is the fullest collection of critical commentary.

MEYER, MICHAEL: *The Making of a Dramatist 1828-1864*. Rupert Hart-Davis, London, 1967.

MEYER, MICHAEL: *The Forewell to Poetry 1864-1882*. Rupert Hart-Davis, London, 1971.

MEYER, MICHAEL: *The Top of a Cold Mountain: 1883-1906*. Rupert Hart-Davis, London, 1971.

MEYER, MICHAEL: *Ibsen's Dramatic Method*. Faber, London, 1953. This contains excellent discussion of the plays; it has influenced most recent interpretation.

THOMAS, P. F. D.: *Ibsen's Dramatic Technique*. Cambridge University Press, Cambridge, 1948. This is also a useful study.

-Henrik-Ibsen-

La pièce étudiée :
Maison de poupée (suite de Les Revenants) éditions Livre
de Poche , Paris , 1961 .

I - Nous citons ici les principaux ouvrages d'Ibsen :

- Catilina 1850
- Terre du guerrier 1853
- La nuit de Saint-Jean 1853
- Dame Inger de Ostraat 1855
- La Pêta à Solbærg 1856
- Les Guerriers de Helgeland 1858
- Comédie de l'Amour 1862
- Les Prétendants à la couronne 1863
- Brand 1866
- L'Union des Jeunes 1869
- Les Soutiens de la société 1877
- Maison de Poupée 1879
- Les Revenants 1881
- Le Conard Sauvage 1884

Le genre de vie du héros nous mène à songer à l'éducation qu'a reçue la jeune fille. Notons, tout d'abord qu'Anne conçoit la vie d'un oeil différent de celui des Raymond. Ainsi prend elle son élan pour "remodeler" Cécile. Elle entreprend pour ainsi dire, la rééducation de cette jeunesse déroutée.

Bien avant d'être fiancée à Raymond, Anne avait déjà assumé le rôle de conseillère auprès de cette jeune orpheline.... En fait, il y a deux ans, à la sortie de Cécile du pensionnat, Raymond, embarrassé de sa fille, la confia à Mme Larsen En sept jours, elle l'a vêtue avec élégance et lui enseigna le savoir-vivre! Et la petite en fut ravie.

Quelles sont les réformes que fait Mme Larsen dans la vie de Cécile? Les pages suivantes illustrent ces réformes qui sont nombreuses et indéniables A savoir que l'influence salubre de celle-là s'exerce sur la petite cynique avant même qu'elle revioie l'adolescente. Ainsi comme Anne arrive aujourd'hui, l'héroïne regrette sa joie et sa déiiente sans frein de la veille: " je revis les derniers jours de cette semaine, se plaint-t-elle, ma confiance, ma tranquillité auprès de [Cyril] et je regrettai l'approche de cette bouche longue.

- Cyril, dis-je, nous étions si heureux "'

1) Bonjour Triatessa, P. 25.

(1)

Sur ce , Cyril "embrassa doucement " l sa
compagne . Mais ce baiser clandestin fut ,brutalement inter-
rompu par le Klaxon d'Anne qui devait venir de loin
Aussitôt,Cécile sauta vers leur villa . Désolée,elle alla
rejoindre l'invitée importune .

Dès son arrivée,celle - ci cherche à réformer, sur tous
les plans, la petite qui glissait dans les méandres de l'ab-
surdité et de la gaïté perverse . Ainsi, ¹ ne tarda pas
à s'informer sur les études de la jeune fille. Ecoutons leur conver-
sation qu'infeste l'intervention du père qui ~~accouva~~ la
paresse de sa fille , et qui aiguille son attention vers les
voies ambiguës :

- "Et votre examen ? ,demande la dame câlée .
 - Loupé ! fit Cécile, avec entrain . Bien loupé !
 - Il faut que vous l'ayez en Octobre , absolument.
 - Pourquoi ? intervint le père . Je n'ai jamais eu de diplôm
moi . Et je mène une vie fastueuse .
 - Vous aviez une certaine fortune au départ , rappela Anne .
 - Ma fille trouvera toujours des hommes pour la faire vivre
-

1) ibidem .

observa Raymond noblement ! (.....) (1)

- Il faut qu'elle travaille , ces vacances " !, dit Anne pour mettre fin aux remarques ifascibles du père et de sa fille .

Les remarques de ~~M. Nasser~~ sont doublement néfastes et destructives et sur le plan moral et sur le plan étudiantin. ^{Sa fille} Le père initie indirectement/à se lier à quelque homme qui puisse couvrir ses frais . On dirait qu'il lui déblaye le chemin du vice et du relâchement ! D'autre part , il lui déconseille de faire un effort pour réussir à l'examen !!

Avant de tourner la page , signalons que l'incident de l'examen de repasse de Cécile évoque, dans une certaine mesure celui de son auteur

Remontons le fil du temps peu avant l'année qui précède la publication de "Bonjour Tristesse" , nous trouvons Françoise admise au cours Hartemer - Pringuet où elle prépare son baccalauréat . Elle rata la session de Juillet , fut admise à celle d'Octobre Elle rencontra l'insuccès en fin d'année en perdant les moyens de passer la session d'automne . Les frondes que lui fit sa maman en cet été, à cause de son échec la poussèrent à composer cet

1) op.cit . P. 40.

ouvrage . Elle l'écrivit en quatre - vingt dix jours .

Elle le fit éditer en 1954 .

En somme, l'insuccès scolaire de l'étudiante l'incita à tenter un nouveau chemin, à cesser d'être candidate pour devenir maître ! Son livre remporta le prix des Critiques : 1954.

Ainsi Sagan a fait-entre 1953 et 1957-dans le monde littéraire une entrée si prompte , si inattendue si disproportionnée avec son âge qu'elle attira sur elle des regards affectueux ou imprégnés de cupidité . Revenons à son

Héroïne Anne continue affectueusement , et patiemment à inciter la jeune fille à se mettre à étudier . Car elle se sentait , en quelque sorte, sa tutrice . Un jour , après souper "une discussion s'éleva "Il" à propos de l'examen de Philosophie-Comme Cécile fit quelques répliques insolentes, Futura belle - mère l'enferma à clef "(2) dans sa pièce , sans hausser la voix pour la contraindre à réviser la philosophie , Anne ne s'irrita guère car elle " accordait toujours aux choses leur importance exacte "(3)

1) op. cit , PI26 .

2) op. cit , PI26 .

3) op. cit. , P. 88 .

Continuant sa noble mission , l'éducatrice intervient, un jour, pour freiner l'appel des sens chez l'adolescente . Voyons cette scène...comme Anne surprit , un matin, Cyril et Cécile en train de s'embrasser, elle ordonna^à celui - là de se séparer de sa pupille " Ne protestez pas , rit - elle en fixant la jeune fille indisposée, je suis un peu responsable de vous à présent et je ne vous laisserai pas gâcher votre vie . D'ailleurs vous avez du travail à faire , cela occupera vos après - midi "(1)

Sur ces entrefaites , Anne incita le père passif à prendre son parti dans l'intention de sauver Cécile . Dans ce sens, elle lui dit de pousser sa petite à abandonner son Cyril et à la contraindre à préparer l'examen de repasse. Le père gêné, baissa les yeux " très ennuyé et souigna sans conviction " Oui , après tout , tu devrais travailler un peu , Cécile . Tu ne veux quand même pas refaire une philosophie ?"(2)

Continuant sa campagne culturelle , Anne tient à bien éduquer sa protégée, quant aux questions sentimentales La page suivante est bien révélatrice à cet égard .

Une fois Raymond et sa maîtresse Elsa qui était pelée par

le soleil - se retirèrent dans un tête-à-tête intime , soit

1) Op. cit. P. 23

2) op. cit. P. 25

disant pour faire la sieste

Anne en souffrit , clandestinement . Cécile qui avait assisté à la scène fit à celle - ci quelques remarques impertinentes . En général, sa conduite déborde le cadre de la simple décence ..." Remarquez qu'avec les coups de soleil d'Elsa , ce genre de sieste ne doit pas être très grisant , ni pour l'un ni pour l'autre ;" (1) glissa la petite effrontée. Garder silence aurait été beaucoup mieux . Car l'invitée riposta - " Je déteste ce genre de réflexion . A votre âge c'est plus que stupide, c'est pénible." Verdictée, la jeune fille alléguait qu'elle plaisantait, simplement, et qu'en fait , elle est convaincue qu'ils sont très heureux " (2) On ne peut nier que Sagan si jeune nous étonne en traitant avec une insolente tranquillité et avec une maîtrise ^{désinvolte un sujet ambigu} Comme madame parut éccaspérée, la petite insolente lui présenta ses excuses .

Aussitôt, cette âme généreuse reprit son rôle de réformatrice bien que la situation s'avère fort critique pour elle; " Vous vous faites de l'amour une idée un peu simpliste , observa-t-elle . Ce n'est pas une suite de sensations indépendantes

1) op. cit . , P. 46

2) op. cit . , P. 46 .

les unes des autres." (1) Anne donnait aux objets " leur importance exacte." (2) Cécile croyait que toutes les idylles étaient de la sorte Une émotion soudaine devant une figure , un mouvement sous une bise quelques lambeaux de temps vibrants de joie , " sans cohérence ." (3) "- C'est autre chose, re- part Anne . Il y a la tendresse constante , la douceur , le manque Ces choses que vous ne pouvez pas comprendre," (4).

Cette dame jouit du talent et de la patience nécessaires au pédagogue docte .

Un matin , Cécile prit comme petit déjeuner une orange et une coupe de café noir . Sur ces entrefaites , la tendre Anne lui conseilla de prendre un petit déjeuner plus nourrissant. Écoutons leur conversation:

" - Cécile , vous ne mangez pas ?

- Je préfère boire le matin parce que

- Vous devez prendre trois kilos pour être présentable . vous avez la joue creuse (.....) Allez donc chercher des tartines .75

Un jour, Anne annonça à la jeune fille quelque chose qu'elle craignait .

1) op.cit . , P. 46 .

2) op.cit . , P. 88 .

3) op.cit . , P. I

4) op.cit . , P. 2 .

5) op.cit . , P. 36 .

et dur appel sensuel , contre la chaleur pénible de l'été qui la lance, à moitié nue sur la plage où les jeunes gens font leurs plongées quotidiennes . Toutefois , Cécile refuse la présence d'Anne dans leur vie . Les Héloïses séduisantes ont la lucidité impitoyable, le cynisme triste, les séductions désagréables d'une certaine jeunesse acheminée.
L'annonce des fiançailles désaccole notre héroïne . Naguère , elle croyait qu'Anne était une simple invitée qui allait les qu'à la fin de l'été . Sa quiétude s'était basée sur cette pensée naïve : Mme Larsen connaissait son père depuis une quinzaine d'années S'ils pouvaient tomber amoureux l'un de l'autre ils l'auraient fait depuis bien longtemps !!

Mais durant le séjour à la côte , voici qu'ils s'attachent l'un à l'autre .

Raymond s'éprend de celle en qui tous " les charmes de la maturité semblaient réunis " (1). Cécile craignait l'alliance d'Anne comme on l'a déjà dit . Elle savait qu'elle était " une pâte modelable " (2) et que cette belle - mère était susceptible de la réformer au mieux .

La jeune fille s'évade loin de cette âme généreuse auprès de laquelle elle ne risque que de s'ennoblir . A cette créature subtile et vaillante, elle préfère le voisinage d'Elsa , la rousse dévergondée; aux côtés de celle - ci , elle risque de

1) op. cit. , p. 55 .

2) op. cit. , p. 78 .

- " Votre père et moi aimerions nous marier ." (1) Alors, l'adolescente fixa son père et son invitée . Elle chercha le secours dans le regard paternel . Mais celui - ci se déroba . Elle songeait : " Ce n'est pas possible " mais je savais déjà que c'était vrai " (2). Elle aime Anne, mais elle déteste ses réformes régénératrices et salutaires . Elle se sent à la fois, attirée et rebelle . Les oscillations ressenties par la jeune fille sont décrites d'une manière véridique . Cécile est déchirée entre l'amitié qu'elle voue à cette femme et la peur que sa présence n'aliène sa liberté . La peinture des sentiments contradictoires qui l'assaillent trahissent un auteur subtil et un talent indéniable . Sagan commençait à mettre en relief son héroïne à la fois altière et sensible, mais souvent indomptable . Elle nous montre son âme flottant entre la faiblesse et le courage , entre la mollesse et la vertu Etant faite de la sorte , elle l'a souvent mise en contradiction avec elle-même . Cécile admire la noblesse d'Anne . Car celle-ci possède cette espèce d'autorité et d'expérience dont elle cherche l'appui . Comme toutes les autres adolescentes , Cécile a besoin d'un bras tendre comme celui d'Anne . Ce bras est apte à la protéger contre elle - même , contre le juvénile

1) op. cit. , p 65 .

2) op. cit. , p 65 .

se compromettre, voire de se souiller !

Cette idée de "pâte mondaine" et l'influence de la demi-mondaine qui incarne la rousse, évoque le demi-monde où voguent les personnages de Gigi. Dans ce roman, les parents préparent clandestinement l'adolescente Gilberte à être une demi-mondaine. Dans ce sens, Gigi, ce lot "de matières premières" reçoit une formation, radicalement immorale. Colette traite le thème du demi-monde avec le maximum de discrétion. La grand'tante experte, apprend à Gigi comment séduire les hommes, comment les capter..... Cette dame au passé équivoque, a bien sondé l'âme masculine à travers ses nombreuses aventures amoureuses. Elle a tout dévoilé malgré les apparences trompeuses de l'homme. Elle enseigne, entre autres, à sa nièce comment feindre d'être une superstitieuse en simulant de croire à l'influence de certaines choses sur la fortune par exemple : la vue d'un chat noir ou la cassure d'une glace déclenche les calamités de croire au mauvais oeil... et la liste est bien longue..... Mais l'adolescente en herbe objecte, signalant qu'il ne s'agit là que de choses absurdes....

- " Bien sûr, ma fille, approuve tante Alicia. On appelle ça aussi des faiblesses. Un joli lot de faiblesse et la peur des araignées, c'est notre bagage indispensable auprès des hommes.

- Pourquoi tante ? (.....) .

- Parce que (.....) ils nous pardonnent beaucoup de choses, mais non pas d'être libres de ce qui les inquiète (1).

Entre temps, Cécile décide d'écarter la douce fiancée de son père, et de la remplacer par elle-même. Elle se dit dans son cœur :

O Colette, Gigi p. 42.

Cécile somnait dans les craintes . Si elle s'était dotée de patience, de lucidité et d'un brin de tolérance , elle se serait résignée et assagie , Car elle savait que son père trouvait son bonheur auprès ^{d'Anne, auprès} de cette âme généreuse . (Elle-ci étanchait sa soif pour une dame respectueuse , apte à devenir une seconde mère pour sa fille unique . D'autre part, il était épris de cette dame fine " Il l'admirait , elle le changeait de cette suite de femmes frivoles (.....) qu'il avait fréquentées, ces années dernières . Elle satisfaisait à la fois sa vanité , sa sensualité et sa sensibilité car elle le comprenait, lui offrait son intelligence et son expérience à confronter avec les siennes "(I) .

Mais le malaise qui va de pair avec le désarroi et l'in - Constance envahissait Cécile .

Elle constate qu'Anne a assuré à Raymond l'équilibre conjugal de la maison . Toutefois, elle néglige l'intérêt de ce fiancé . Elle refuse de réaliser ce mariage heureux pour son père . Elle évolue dans l'égoïsme : " Il fallait absolument se secouer , songait - elle, retrouver mon père

I) Bonjour Tristesse P. 163 .

et notre vie d'antan "(1). En ruminant cette idée, les deux ans engloutis depuis son départ du couvent, se dotaient d'une beauté suprême Elle y jouissait de " la liberté de penser , et de mal penser et de penser peu , la liberté de choisir (s)oi - même (s)a vie (....) celle de refuser les moules",

Se sentant perdue , Cécile décide de comploter contre la brave femme . Elle va monter un scénario Ce projet lui paraît aisé , surtout qu'elle avait à sa portée, les éléments d'un drame : " un séducteur , une demi - mondaine , une femme de tête." (3)

Désormais, le besoin " de la séparer de (son) père est féroce " (4). Ceci devient une hantise Sur ces entre-faites , la jeune fille organise un dessein logique , lucide, mais cynique . Elle va éveiller le sens du défi chez Elsa . Elle va la charger d'éloigner Anne de son futur mari..

En même temps, elle va aiguiller les regards de son père vers Elsa Elle organise un plan qui va s'adapter au penchant de ce dernier : " qui tentait de donner à toute chose une explication physiologique qu'il déclarait irrationnelle (....)

1) Bonjour Tristesse, P 78 .

2) op. cit. , P 78 .

3) op. cit. , P 42 .

4) op. cit. , P 83 .

Il en était de même du désir violent qu'il ressentait, parfois pour une femme, il ne songeait ni à le réprimer ni à l'écarter jusqu'à un sentiment plus complexe " (1). Concentrons les éclairages sur les manœuvres de l'héroïne . Elle apprend à Elsa qu'Anne, sa rivale, a résolu d'épouser Raymond . Sur ce , celle - là parut "désespérée " (2) comme si elle avait essuyé une gifle . Puis, elle prétendit que son père " souffre " (3) clandestinement, de ce projet de mariage sans pouvoir s'en défendre.. " Il n'y a que vous qui soyez de taille à lutter contre Anne . Vous seule avez la classe suffisante " (4) , insiste l'adolescente . Au fond, celle-là ne cherchait qu'à la croire . Mais bientôt , Elsa constate que puisqu'il va l'épouser, c'est qu'il doit être épris d'elle

- " Allons " , fit Cécile, s'évertuant à porter le dernier coup aux objections de sa compagne " c'est vous qu'il aime Elsa ! N'essayez pas de me faire croire que vous l'ignorez." (5) A entendre ces mots suaves , la rousse " renaissait à vue d'œil " (6) La jeune fille a bien éveillé le sens du défi chez elle . Dans ce sens, l'intruse s'apprête à provoquer sa rivale

1) op . cit , P 162 .

2) op . cit , P 94 .

3) op . cit , P 94 .

4) op . cit , P 94 - 95 .

5) op . cit , P 95 .

6) op . cit , P 96 .

et à lui prouver qu'elle peut reprendre son homme et la porter au désespoir . Cet ouvrage nous révèle le talent de Sagan, âgée de dix - huit ans..... Cette jeune fille mobile, furtive, rôdeuse , translucide, monte le scénario qui relancera son père assailli de dépit, vers la rousse et qui fera d'Anne une délaissée . Elle exécute vite son plan infernal . Elle se conduit de la sorte, autant pour se prouver son génie et la lucidité de son analyse que pour se débarrasser d'une tutrice sévère . Pour ce faire , elle prend la rousse par la vanité .

Cécile ravie, se félicite d'avoir bien analysé Elsa: " Pour la première fois , j'avais connu ce plaisir extraordinaire : percer un être, le découvrir , l'amener au jour et , là, le toucher . Comme on met un doigt sur un ressort , avec précaution (.....) Touché ! Je ne connaissais pas cela , j'avais toujours été trop impulsive quand j'avais atteint un être , c'était par mégarde . Tout ce merveilleux mécanisme de réflexes humains , toute cette puissance du langage , je les avais brusquement entrevus quel dommage que ce fût par les voies du mensonge!"

-----e-----
I) op . cit . , P. 101 .

L'héroïne se délecte de son dessein, d'autant plus que ces deux personnages, Cyril et Elsa qui prennent les ordres d'elle, sont plus jeunes qu'elle d'une dizaine d'années !

Cependant, elle décide de donner à son père sept jours pour désirer Elsa à nouveau . En même temps , ce "charmant petit monstre ", selon l'expression de Mauriac, chargea la rousse de résider chez Cyril et de jouer devant Raymond le rôle de couple amoureux . Cyril accomplit son rôle, à merveille . Car l'endiablée lui a prétendu que l'alliance prévue d'Anne va, sans faute, entraver leur mariage .

Elsa était fraîche , saine lumineuse , bref resplendissante, susceptible de ranimer les cendres de l'amour physique chez Raymond .

On réalise le plan tous trois conspirent contre la douce Anne .

voici Cyril et Elsa qui paracent devant notre héros pour l'irriter . On rencontrait ce couple de conspirateurs : Elsa et Cyril-partout, dans la rue, dans la forêt , à la plage, au centre - villeDorénavant , la chaîne des dépendances amoureuses est attachée .

" Le metteur en scène " savait que son Don Juan de père n'a jamais accepté qu'une jolie femme qui a été sa maîtresse ..

se console rapidement et sous ses yeux en particulier avec un rival moins âgé que lui ! Ainsi elle met en vedette la jeunesse de Cyril en tant que concurrent de son père .

-" Tu ne t'imagines pas qu'un galopin me prendrait une femme si je n'y consentirais pas ",(1) prétend Raymond, chagriné, à sa fille .

Une semaine passe l

Entretiens se creuse l'influence souterraine des idées des fructives de Cécile chez notre héros . La jeune fille fait si bien que son père s'exaspère, la rousse devient à ses yeux l'emblème de la vie passée de la jeunesse et du triomphe . Les tourments le terrassent .

A présent, Raymond avait besoin d'Elma . Il la désirait "du double désir que l'on porte à la chose interdite "(2) En même temps le "metteur en scène" cherchait à ce que le "désir au coeur de (s)on père s'infestât et lui fit commettre une erreur."(3) Cet ouvrage nous a convaincu des dons psychologiques et des possibilités de style que possède Sag . Ce roman fait preuve d'une précocité inouïe . Pour un premier roman écrit par une adolescente Bonjour Tristesse, est une

1) op . cit . P. II7 .

2) op . cit . P. I65 .

3) Ibidem .

réussite . Pour un coup d'essai , c'est un coup de maître .

la jeune fille voulait qu'Anne apprit que son futur l'a "trompée " (1). L'héroïne sait que ce fait doit être infernal pour la fiancée , pleine de dignité . Il y a ce point que ne peut digérer cette dernière , songe Cécile, avoir été une amante comme les autres , bref, une amante " provisoire " (2) Elle avait admis de vivre avec Raymond à des conditions : ^{bien claires} que l'époque du dévergondage était terminée et "qu'il n'était plus un collégien , mais un homme à qui elle confiait sa vie , et que, par conséquent, il avait à se tenir bien et non pas en pauvre homme , esclave de ses caprices " (3) .

En face de Raymond qui avait mené une vie désinvolte devant sa fille, se dresse Anne comme un édifice édifiant, comme la conscience .

Entre temps, Cécile continue à filer de ses mains le rond du drame . Le père traqué, indirectement par la persécution de sa fille, cède au caprice Un jour la belle fiancée surprend son futur et Elsa en train de s'embrasser Aussitôt, elle sent qu'il s'agit d'"une atteinte à sa valeur personnelle, à sa dignité " (4) . Brisée, elle parut "décomposée" (5)

1) op . cit., p. 166 .

2) op . cit., p. 167 .

3) op . cit., p. 164 .

4) op . cit., p. 166 .

5) op . cit., p. 175 .

Elle fondit en larmes .. les pleurs coulaient
"inlassablement sur son visage immobile ". Cette femme solide
défaillit humblement . Elle ne pourra survivre à la trahison
de Raymond bien qu'il s'agisse d'un caprice .

Navrée et outragée, elle déserte le camp et abandonne son
amour à jamais .

Cette situation de femme trahie, évoque, dans une certaine
mesure , celle de Colette , durant son premier mariage .
D'ailleurs, on a souvent comparé littérairement Sagan à Colette
Elles sont écrivains femmes . Elles sont douées pour la littérature . Elles ont composé leurs premiers romans, âgées d'une
vingtaine d'années Elles ont traité , en premier , les
problèmes du coeur . La vie privée de ces deux auteurs se
confond avec l'univers romanesque de leur héroïne . N'empêche
qu'il y ait des différences entre les deux écrivains. Cela nous
amène à mentionner à travers la partie suivante-les
traits de similitude et de divergence entre les deux romancières .

Remontons le fil du temps vers le passé, vers les années
1900 A cette époque , Colette était mariée à Willy .

Cet homme volage et séduisant avait le talent
d'occuper l'idée de plusieurs femmes à la fois . Aussi avait-il
des vingtaines d'amoureuses et de maîtresses La je

épouse le savait . Dans ses liaisons , on distinguait " la femme du monde (....) la vierge mûre (....) et l'Américaine brune "(1)
sans oublier la série des jouvencelles écervelées, jouant à la Claudine , habillées en cols organdes et murmurant " O monsieur , c'est moi qui suis la vraie Claudine "(2).

Vers 1905 , Willy insinua à sa conjointe l'idée du divorce . Ebahie , la jeune femme , congédiée , se mit à ruminer une partie du code civil : " désertion le domicile conjugal " (3).

Mais à l'inverse d'Anne , elle décide de se cramponner davantage à son homme . Entre temps , elle cherche à s'adoucir et à s'apaiser . Elle constate que, d'une part , les aventures de ce partenaire séducteur et de ses entichées qui s'évertuent à l'écarter du foyer conjugal - n'entravent plus sa propre liberté . Loin de penser à s'en aller , elle souhaite débarrasser son conjoint des amourettes collées à lui . D'autre part, à le trouver recherché et tiraillé par tant de femmes , elle s'acharne à l'attacher à elle, davantage

Toutefois, le divorce est prononcé en 1906 . Après le divorce, Gabrielle qui était fragile et vulnérable commence à durcir .

-
- 1) "Colette à la Recherche de l'amour " par René Barjavel
conférence faite à Vichy le 21 février et à Moulins le
13 Mars - éd. La Nouvelle Province littéraire, Moulins 1934 -P22
2) Ibidem .
3) Colette: Mes Apprentissages , P. 453 .

Elle s'achemine vers la maîtresse de soi . Elle ne va plus cultiver son mal . Elle se résigne. Colette gagne au bout de quelque temps , " ce durcissement qu'(elle) compare à l'effet des sources pétrifiantes " (1). Ainsi elle accède aux rivages paisibles de la quiétude et de la sagesse .

Le coup qui déclencha la séparation finale de Willy et Colette amena celle - ci à se raffermir à la longue , et à se doter , petit à petit , d'une carapace quasi invulnérable. ~~Contrary to what~~ le coup qui engendra la rupture finale avec son amoureux , brisa, complètement Anne . Frustrée , cette dame généreuse se suicida, mais noblement . Elle fit semblant que sa voiture s'est cognée dans un lieu où sont fréquents les accidents de véhicules . " Anne nous a fait ce cadeau somptueux de nous laisser une énorme chance de croire à un accident " (2) , constate la petite coupable . Au lieu de désespérer et de sombrer dans l'amertume la protagoniste de Sagan aurait dû faire comme celle de Colette Claudine (Claudine en Ménage). Certes , la vulnérable Anne aura dû s'apaiser dans la nature comme Claudine , trompée par son ma

Cette héroïne a recours à la nature pour guérir une déception amoureuse Elle s'enivre de cette " mère " aux dons intarsissables qui éponge les chagrins C'est que déçue dans son

1) Mes Apprentissages, P. 437 .

2) Bonjour Tristesse , P. 182 .

expérience conjugale et extra - maritale , Claudine échappe au domicile conjugal et du mari pour s'enfoncer dans la campagne . Cette jeune femme retourne à son royaume d'antan, LA TERRE, pour ne pas s'étioier . Elle y retrouve "l'herbe qui guérit." (I) Pourtant , elle ne peut oublier complètement sa peine . Un reste d'amertume s'infiltré dans son âme et l'amène à ruminer la déception d'hier . Mais quelle était l'histoire de cette déception poignante ? Voyons comment l'époux l'a trahie ? Il y avait dans l'entourage des Renaud , une blonde ravissante , appelée Rezi....

Bientôt, Claudine et son mari tombent amoureux de la belle intruse !! Mais l'épouse ignore le penchant de Renaud . Cependant, ce dernier surveille la maison très intime de sa conjointe avec la blonde . Il installe ces deux dernières dans un appartement à la rue Goethe ! Un jour , Claudine découvre que Renaud la trompait avec sa belle amie . C'est un choc brutal pour elle . C'est une double trahison . Le mari adoré la trompait avec l'amie trop liée à elle !! Ulcérée, elle part pour la campagne où elle s'apaise . Là , reconciliée avec son époux , elle accepte qu'il vienne la rejoindre au sein de la nature. Voyons l'Héroïne de Sagan qui est une Colette maigre et anémique.

Quand Anne est touchée par le coup que Cécile lui a donné inattenduement , celle - ci constate qu'elle a joué avec le feu et que le coup a été mortel . Hélas ! Elle se rend compte trop tard, que

I) Claudine en Ménage , P. 301 .

l'amour est quelque chose avec lequel on ne peut badiner sans
remorde ! La pièce de Musset : On ne badine pas avec l'amour
vient à l'appui de cette idée.

A présent, Cécile demeure mélancolique. Elle a l'impression
d'être devenue une orpheline après le décès d'Anne.

Sagan n'est pas comme Colette qui anticipe dans certains romans
sur l'avenir. Dans ce sens, Cécile - Françoise - Sagan n'a
jamais prévu que le ^{remords} d'Anne lui causera tant d'amertume.
Après le décès, Cécile connaît le goût de la tristesse. La
tristesse ici est le mécontentement ressenti quand l'héroïne
pense au suicide d'Anne elle éprouve un sentiment douloureux à la
suite du mal qu'elle a commis. C'est le remords.

Cécile se rend ^{compte} trop tard que si elle avait favorisé l'alliance
prévue de son père, elle se serait apaisée.

Cette mère - morte aurait été pour Cécile la consolatrice de
son adolescence et la ressource de sa jeunesse. Elle aurait
tempéré ses penchants égoïstes. Bref, elle aurait pu
adoucir toute son existence.

A plus d'un égard, Sagan appartient à la lignée des mora-
listes, ce propos n'est qu'apparemment paradoxal. Après la
disparition d'Anne, dont elle redoutait les réformes, Cécile
découvre un sentiment inconnu. La Tristesse devient son lot.

Conclusion

La sérénité que ressent l'homme provient, en grande partie , des bienfaits qu'il répand autour de lui, du calme de sa conscience . Soyons donc des fleurs qui répandent leur parfum partout .

Il convient d'encourager les personnes vaillantes , animées de l'esprit de sacrifice , et non les maudire .

On doit applaudir l'altruisme quand on le rencontre .

C'est en effet dans la vaillance et dans le dévouement qu'on puise la paix du coeur Ces deux qualités enrichissent et ennoblissent celui qui les possède . Elles ouvrent , en principe la voie à tous les beaux et grands sentiments . Celui qui s'attache sincèrement aux principes, est aussi prêt à s'intéresser aux autres . Ceci comporte toujours sa part d'idéalisation qui n'est certainement pas chimère .

Il faut donc mettre les valeurs de l'action à la disposition d'une morale basée sur l'importance du dépassement .

A l'existence confinée et close que limitent des horizons étroits , les pilotes de haute altitude que sont NORA - VIOLAI-NE - ANNE , poussés vers un but noble , préfèrent l'affrontement de l'orage . Ces trois héroïnes dépassent toute frontière , elles planent loin de l'intérêt personnel .

En somme , l'humanisme , le dévouement et le sens du sacrifice conduisent l'homme généreux à se dépasser lui - même . S'il vrai que s'attacher à ces trois qualités , permet à l'être de donner le meilleur de lui - même , il faut convenir qu'elles constituent de très Hautes vertus .

Pour les trois écrivains Ibsen, Claudel et Sagan, il n'y a pas de SALUT INDIVIDUEL . A travers les trois ouvrages - que nous avons étudiés, ils prêchent la solidarité et dénoncent l'irresponsabilité morale . Sagan , la plus jeune , signale à travers Bonjour Tristesse l'introduction du désespoir dans une existence dirigée par le PLAISIR .

La pensée de ces trois auteurs , offre une vision du monde menant vers le salut . Elle propose une image de l'être qui se cristallise en un humanisme vivant .

Saluons tout écrivain qui nous incite à suivre la voie des valeurs et des principes . Cette voie , jonchée à la fois de simplicité , de pureté et de bonheur , rythme notre vie et la rend plus sublime .

C'est en méditant ces idées que nous serons plus près de la vision à la fois pragmatique et philosophique de Kant : " Le étoilé au - dessus de ma tête, la loi morale au fond de mon

Paul Claudel .

A - Oeuvre de Claudel

- Oeuvre poétique , introduction par Stanislas Fumet , Paris ,
Gallimard , 1957 .
- Oeuvres en prose , préface par Gaëton Picon - Paris , Galli-
mard , 1965 .
- Théâtre , textes et notices établis par Jacques Petit , Paris
Gallimard , 2 volumes : tome I , 1967 , tome II ,
1965 .
- Figures et paraboles : Paris , Les Belles Lettres , 1974 .
- Edition utilisée .
- L'Annonce faite à Marie , Paris , Gallimard

B - Ouvrages sur Claudel

- Boly (Joseph) , Paul Claudel : "L'Annonce faite à Marie " ; étude
et analyse , Paris , Editions de l'Ecole , 1957 .
- Brunel (Pierre) , Claudel et Shakespeare , Paris , Colin, 1971 .
- Chazel (Pierre) , Figures de Proue : de Corneille à Valéry ,
Neuchâtel , Delachaux et Niestlé , 1948 , pp . 154 - 168 .
- Donnard (Jean Hervé) , Trois écrivains devant Dieu : Claudel ,
Mauriac , Bernanos , Paris , Société d'édition d'enseig-
nement supérieur , 1966 .

- Lespiau de la Baïstre (André) : La Rive sans la Durance et l'écrit
ure de Paul Claudel , Paris , Minard , 1973 .
- Osoffra (Giberti) , Claudel et l'Univers chinois , cahiers
 Paul Claudel N° 8 , Paris , Gallimard , 1968 .
- Guillemin (Henri) , Claudel et son art d'écrire , Paris ,
 Gallimard , 1955 .
- Guillemin (Henri) , Le "Copvairi" Paul Claudel , Paris ,
 Gallimard , 1968 .
- Balter (Raymond) , La Vie de Paul Claudel , étude et anthologie , Paris ,
 Mame , 1958 .
- Rompf (Jean - Pierre) et Petit (Jacques) , Etudes sur le
"Trilogie" de Claudel - 2- La Paix sur , Archives
 claudéliennes N° 6 , archives des Lettres Modernes
 N° 77 , Paris , Minard , 1967 .
- Lioure (Michel) , L'Esthétique dramatique de Paul Claudel ,
 Paris , Armand Colin , 1971 .
- Madault (Jacques) , Claudel et le langage , Poitiers , desclée
 de Brouwer , 1968 .
- Madault (Jacques) , La Trame de Paul Claudel , Paris , desclée
 de Brouwer , 1967 .
- Marcel (Gabriel) , Regards sur le théâtre de Claudel , Paris ,
 Beauchesne , 1964 .

- Marcier - Espléche (Marianne) , Le Théâtre de Claudel ou la
puissance du grief et de la passion , Paris , Jean -
 Jacques Pauvert , 1968 .
- Michaud (Guy) , Messages poétiques du symbolisme , Paris , Klincksieck ,
 1947 , vol . III , pp . 595 - 629 .
- Mandor (Henri) , Claudel plus intime , Paris , Gallimard , 1960 .
- Feyre (Henri) , Hommes et œuvres du XX^e siècle , Paris , Corrêa ,
 1938 , pp . 61 - 110 .
- Fleurance (Michel) , Paul Claudel - une musique du silence ,
 Montréal , les Presses de l'Université de Montréal ,
 1970 .
- Streiguard (Joseph) , "La mystère de la Justice de Dieu"
Grand , de : Etudes C . assiques , V. 22 (4) , octobre .
 1971 , pp . 500 - 51 .

soutenait cette théorie " (1)

Cécile, on l'a vu - cherche à écarter Anne, car elle veut que cette dame soit une étourdie qui admet, docilement, les courants inadmissibles où elle glisse, atteinte de cécité intérieure. L'héroïne cherche à annuler Anne de leur compagn pour jouir de sa liberté, sans entrave. Il s'agit d'une libération ^{pour fuir} déchaînée qu'adopte l'adolescente l'ennui en premier lieu, car Cécile est une désœuvrée parisienne.

Au fond, les ouvrages de Sagan relèvent l'impuissance que ressentent certaines personnes à supporter l'ennui, et un jugement sur les liens entre jeunes gens et personnes mûres. Aussi ses protagonistes sont - ils représentatifs de la jeunesse. C'est pour ces raisons qu'on a signalé que les jeunes gens se reconnaissent en Sagan. Parmi ses contemporains, Sagan a la chance de rester L'écho des adolescents à travers ses ouvrages. Son expression est nette et claire et sa pensée est chaleureuse et profonde. La romancière a exprimé spontanément et lucidement certaines grandes vérités concernant les adolescents et les jeunes gens des années 1950 1960 alors qu'elle était elle-même à l'âge ingrat. L'auteur nommée de l'œuvre admettant " fait l'adulte au lieu d'une réflexion mûrie comme un jeune homme."

1) op. cit. p 49 .
2) op. cit. p 50 .
3) op. cit. p 50 .

- Vous avez des idées (.....) sans valeur "(3)", constate Anne .
La bassesse de la conception que paraît la jeune fille ne
contraste pas ses principes . Car l'existence des Raymond

Cécile .

née dans son milieu , la elle aurait eu du mérite observe
- (.....) Si elle était devenue une fille des rues en étant
accompli quelque chose .
fait ni ceci ni cela, ajoute - i - elle, et non pas d'avoir
perverse " Elle ne glorifie de n'avoir
pour justifier sa désapprobation et pour expliquer sa vision
et mère et elle n'a rien fait pour en sortir "(2) dit - elle
" Elle était dans la situation d'une jeune bourgeoise épouse
Elle n'estimait pas qu'elle a fait quelque chose de méritoire
éprouve des lésions impures et des tourments, l'irritait !
femme tranquille et vertueuse qui s'est écartée de la voie
Cependant, Cécile n'en revenait pas L'image de cette
doctales " (4).

- " Et son devoir de putain ? repart - elle , furieuse .
- Je n'ai pas les grossièretés , objecte Anne même para-

Bref, Cécile aspirait à une existence "de basées et

de turpitudes" (I).

Un jour, les Raymond et Anne firent une visite à la mère de Cyril. Raymond estimait bien ce dernier. Mais il parlait si trivialement auprès de ce jeune homme équilibré et sérieux que la jeune fille se demandait "lequel des deux était l'adulte." (2).

La mère de Cyril était une dame âgée, retirée et pleine de gentillesse. Elle confia ses peines de veuve et de mère essouffée à Raymond et à sa compagne, Anne. En rentrant ces deux dernières firent l'éloge de cette recluse qui a rempli sa merveilleuse tâche de conjointe et d'éducatrice dévouée. Cependant, imprégnée de l'influence souterraine des idées

cyaniques de son père et de l'atmosphère perverse de l'entourage Cécile eut une réaction bien différente. En fait, le père a si mal agi que "le goût du plaisir, du bonheur représenté le seul côté cohérent d'un caractère" (3) de Cécile.

Dans ce sens, elle éclata en reproches, voire en insultes contre les dames de cette espèce. Elle lui reprochait de n'avoir rempli que ses devoirs d'épouse et de mère

- 1) op. cit., p. 34.
- 2) op. cit., p. 49.
- 3) op. cit., p. 32.

L'édition utilisée :

Bonjour tristesse éd . Julliard , Paris , 1954 .

B - Théâtre

- château en Suède , éd . Julliard , Paris , 1960 .
- Le cheval évanoui - Paris , éd . Julliard , 1966 .
- Les Violons parfois - Paris , éd . Julliard , 1962 .
- La Robe Mauve de Valentine Paris - éd Julliard , 1963
- Boheur impair et passé - Paris éd . Julliard , 1964 .
- Il fait beau jour et Nuit éd . Flammarion , Paris , 197
- Un ballet : Le Rendez - vous manqué (éditeur Julliard)

C- Etudes sur Françoise Sagan .

- Blanchet (André) , La Littérature et le Spirituel (La
mêlée littéraire) , Paris , Editions Aubier .
- Moeller (Charles) Littérature du XX^e siècle et Christia
nisme (Espoir des hommes) , Paris , Casterman .
- Mourgue (Gaard) , Françoise Sagan , Paris , Editions univ
sitaires .
- Pol . Vandromme , Françoise Sagan ou l'élégance de sur
vre , éd . Régine Deforges 1977 .

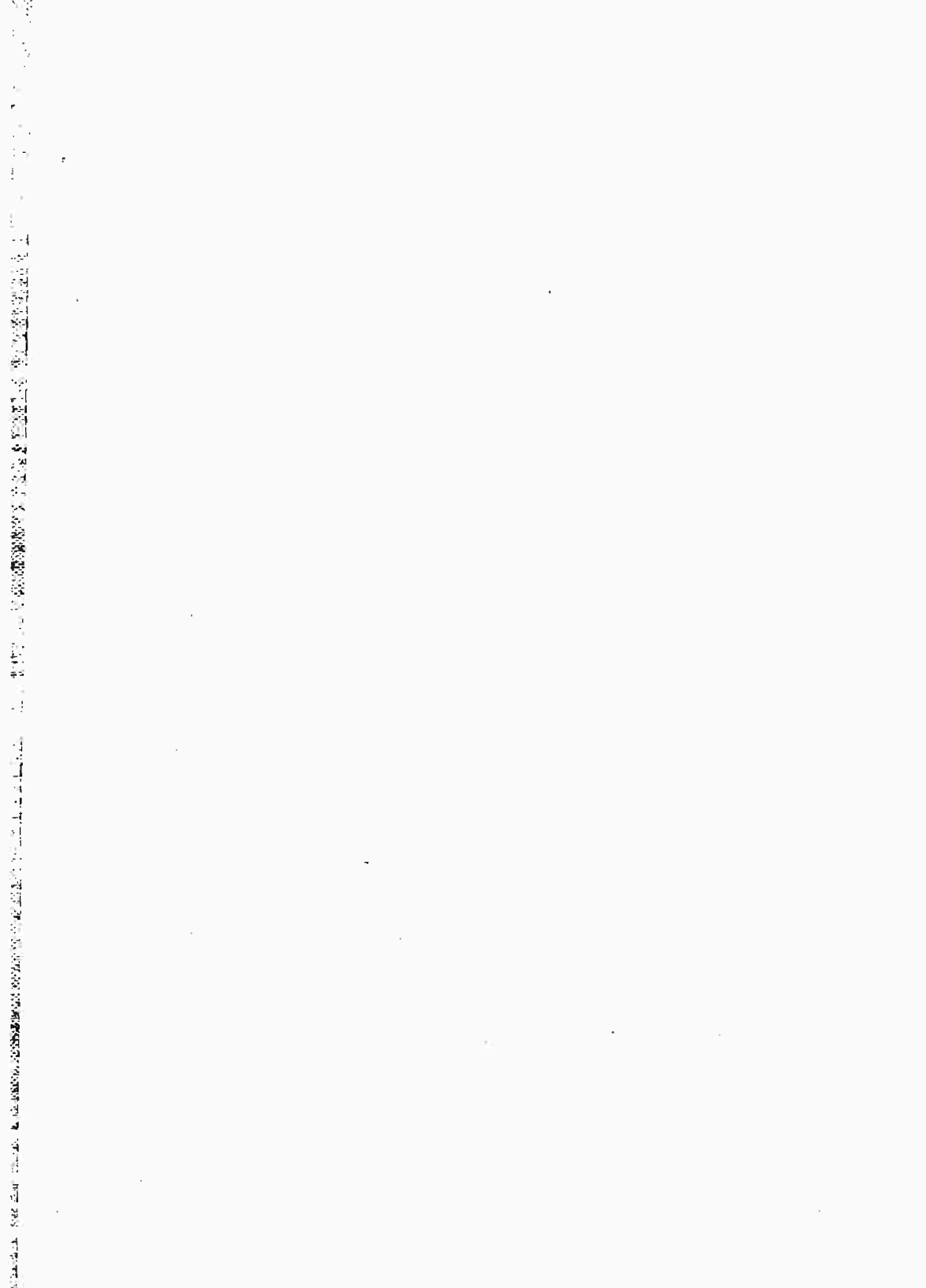
Autres Ouvrages consultés .

- Albérès (Francine - Marill) L'Aventure intellectuelle du XX^e siècle éditions Albin Michel , Paris , 1950 .
- Albérès (R.-M.) Albérès : le roman d'aujourd'hui - éditions Albin Michel, Paris , 1970 .
- Aslan (O) L'art du théâtre , éd . Seghers , Paris , 1962 .
- Barjavel : Colette à la recherche de l'amour conférence faite à Vichy le 21 Février , et à Moulins le 13 Mars - éditions La Nouvelle Province littéraire - Moulins 1934 .
- Borneoqua (J.-H.) et Cogny (Pierre) Réalisme et Naturalisme - éd . Hachette Paris , 1958 .
- Colette : Oeuvres de Colette, éditions Flammarion , Paris , 1960 - 3 Volumes .
- Gide La Symphonie Pastorale, éd. Livre de Poche , Paris , 1961
- Kant : Kant (extraits) Les Lettres Françaises , Le Caire 1954 .
- Michaud (Guy) , L'oeuvre et ses techniques , Paris Nizet 1956 .
- Morel (J.) La Tragédie , Paris , colin "Collection U" , 1964 .
- Musset (Alfred de) : Oeuvres Complètes , éd .La Renaissance du Livre , s.D .
- Raimond (Michel) Le Roman depuis la Révolution , Armand colin Collection U , 1967 .

- Rousseau : Les Confessions, éditions Garnier - Flammarion ,
Paris, 1968 tome I .
- Stendhal : Correspondance , Lettre à Pauline vendredi ,
II Mai , 1804 .
- Stendhal : La Chartreuse de Parme, éditions garnier-Frères ,
Paris , 1949 .
- Trahard (Pierre) Les maîtres de la sensibilité française ,
éd . Bovin , Paris , 1932 .
- Thibaudet (Albert) Reflexions sur le roman , éditions Galli-
mard , Paris , 1938 .
- Zola (Emile) La Terre, Fasquelle éditeurs , Paris S.D .

Table des matieres

Introduction	P.1
1ere partie : <u>Nora</u>	P.4
2eme partie : <u>Violeine</u>	P. 29
3eme partie : <u>Anne</u>	P. 48
conclusion	P. 81
Bibliographie	P. 83
TABIE DES MATIERES	P. 93





The Image of Egypt in

Bimbashi McPherson: A Life in Egypt (1983)*

Mona H. Mones

Lecturer

Faculty of Arts, Cairo University

This is the revised edition of a previously published paper on Joseph McPherson's A Life in Egypt (1983).¹ It is an enlarged, more documented and explanatory version in which the aim is primarily that of showing the image of Egypt that emerges from this collection of letters and to see to what extent it can be regarded as a truthful, reliable and authentic representation of the Egypt of the early twentieth century. To do this, several points have been taken into consideration and dealt with throughout the writing such as the kind of scenes and objects the author chose to present of Egypt; the language he used; whether there is a unifying element in this particular collection of letters that endows it with unity and a sense of continuity; whether or not the author had a vision of life that is expressed through his writing; whether he was concerned with first hand experiences; and how similar to or different from others of his contemporary Englishmen in Egypt Joseph McPherson was.

The reason that made me choose to write about a collection of letters is that the importance of diaries, memoirs, journals autobiographies and private and official letters has increased and is steadily increasing because they are all texts that provide important, and sometimes crucial, information on both their writer and the historical time and place he or she lived in. Consequently, they are used as sources of documentation for a great variety of fields of knowledge such as history, politics, economy, sociology and literature among

*The first edition of this paper was read at the International Symposium on "Images of Egypt in Twentieth century Literature", Faculty of Arts, Cairo University, 18-20 December 1989. It was also privately published in Cairo: Anglo-Egyptian Bookshop, 1990.

others. Their specific interest arises from and depends very often on the personality of their writer. It is well known, for instance, the primordial role that letters of literary figures have played to elucidate their author's literary vision and art. In what English literature is concerned, it may suffice perhaps to remember the extent to which John Keats's, George Eliot's or Elizabeth Gaskell's letters (1952, 1954-5, 1966 respectively) have contributed to the understanding of their respective arts.

Besides their importance as sources of information, this kind of private writings, if endowed with a characteristic and appealing style can be perused and enjoyed for its own sake as is done today with Pepy's Diary (1970-1983), Dorothy Wordsworth's Journal (1941), Lucie Duff-Gordon's Letters from Egypt (1986) or Saad Zaghloul's Memoirs (1987, 1988, 1990, 1991).²

Joseph McPherson's letters are of interest because they represent a valuable historical source as well as being a literary work of value, regardless of the basically unknown though extremely interesting personality of their writer. In what twentieth-century letter writing from and about Egypt is concerned, they are unique, and, to my knowledge they have not been dealt with in any academic research till the present.

A Life in Egypt -(1983) is a compilation of letters written by Joseph McPherson (1896-1946) during his stay in Egypt as an English official in the Egyptian administration. McPherson arrived in Egypt in 1901 and started work in the Department of Public Instruction as a teacher in the Khedivieh School in Cairo. He retired in 1925. A few years before that he had become a police inspector and worked under Russell Pasha in the campaign against Drug Traffic as Mamur Zapt, hence Bimbashi McPherson. Instead of going back to England in 1925, McPherson preferred to remain in Egypt till he died in 1946. According to his own wish, he was buried in Egypt.³

The letters at hand were selected and compiled in one volume by his great nephew John McPherson, a geologist by profession, and Barry Carman, a broadcaster and a writer of historical, literary and biographical documentaries. These private texts were selected out of the

incredible number of twenty six volumes of typed letters which brings to the foreground the skill and insight of the editors. This selection manages to present a round picture of McPherson the man and, through him, the image of Egypt during the earlier part of the twentieth century which is an important period in Egyptian history.

Though the period during which these letters were written was, historically speaking, crucial for modern Egypt because it was a period during which Egyptians showed signs of rebellion against a lifelong existence under foreign rule, McPherson avoided dealing with the subject of politics as far as he could and focused his attention on those parts of Egyptian life that could easily be disentangled from the politico-historical situation. He thus appears as a lover of Egypt who presents a peaceful Egyptian social scene. On a very few instances, however, he is obliged to judge upon political issues as an English government official. On those occasions, he opts for the colonialist point of view and sticks to it. It can be deduced from this that McPherson had the ability to separate between his private life and concerns in Egypt, and his life as an English government official. Consequently, it could be said that two images of Egypt and not only one emerge from these texts as will be shown later.

These letters comprehend all facets of McPherson's life in Egypt. After perusal, an overall picture of the man emerges out of the text and stands vivid, distinct and alive. At the same time and because of the many facets the selection presents, the most diverse aspects of Egypt are seen through the eyes of this Englishman from which a clear and panoramic image of Egypt encompassing the land, its traditions, its people and its politics takes form. The focus of attention in the letters is Egypt, a topic from which there is hardly a digression. It acts as an underlying theme that endows the collection with both unity and a sense of continuity despite of the variety of literary styles and forms the writings display.

Concerning this last point, the editors of the book were well aware of the fact that the plain facts of McPherson's life,

included traveller's adventures, battle-field despatches, tales of mystery and detection, episodes dramatic and humorous and exotic, sidelights on historical events - the letters of a born storyteller a brilliant reporter, and a continuously surprising personality (22).

It is important to mention the reason that had made McPherson come to Egypt and, once there, to decide to spend the rest of his life in it. He took the decision alone and the reason was that he needed to escape from England for a while to recover from a depression into which he fell after his mother's death (A Life 291, 21). Egypt, as he himself wrote, was at the back of his mind:

Since my boyhood it had been my dream to live in Cairo, and, from that centre, to see and know as much as possible of the places, peoples and languages all round the Mediterranean, but particularly those of the Valley of the Nile (21).

McPherson's coming to Egypt, then, was not only an escape to avoid an unbearable situation but was also a deeply rooted boyhood dream that he wished to materialize. This would eventually colour his view of Egypt and shape the image that emerges from A Life.

Consequently, not losing any time after his mother's death, McPherson asked to join the English service in the Egyptian administration and was soon appointed in a post with the Department of Public Instruction, a post which he retained from 1901 to 1914 working in Cairo and Alexandria as teacher, lecturer and educational administrator. It is important to remember that he had no personal private ambitions neither financial nor career wise (A Life, 21-22). His aim was to know Egypt by getting in contact with the land and its people. Thus, he took part in the greatest possible number of official endeavours which offered him the opportunity of "living" his Egyptian experience: He toured Syria, Palestine, Jordan and Turkey on his own initiative (A Life, ch. 5); he volunteered in a reserve unit formed by members of the Gezira Sporting Club to take part in the great War (1914-1918) (A Life, 133); he enrolled as a Red Cross

Officer in July 1915 (A Life, 133); and took part in the Battle of Gallipoli. Though wounded, he avoided Basa jobs but "chose to be commissioned in the newly formed Camel Transport Corps" (A Life, 160) and took part in the Battle of Sinai (A Life, ch. 9). McPherson was, then, always on the move and continually seeking for first-hand experience. This made him different from most of his English colleagues who used the colonial service as a stepping-stone for good positions in England, or for recognition by the English public (Tignor, 197), since, as Tignor continues to explain,

Colonial service presented great opportunities... and held out the prospect of carrying out spheres of power and prestige and developing talents fully (201).

Devoid of the usual ambitions, McPherson neither shone in his career nor did he make any material fortune out of it. He shared, however, with many other English recruits the idea that colonial service offered him the chance of "escaping from complex, industrial European society into a rural environment" (Tignor, 201).

Once settled in Egypt, McPherson literally started a new life that lasted for nearly half a century which is proof enough that Egypt made him feel at home. His genuine attachment to the country and its people endowed him with an understanding of and insight into the place and its inhabitants that mere visitors and normal government officials lack. His positive attachment to the country remained alive throughout his long stay and his attitude to it can be read in the following:

One learns and sees so much without making any personal effort in a few hours as in some countries one might do in as many months. That is the beauty of Egypt - you can be as idle as you like, but you can't wholly waste your time (45).

McPherson wrote his letters between 1901 and 1946 which was a crucial period in the history of modern Egypt because it saw the general awakening of Egyptian self-consciousness. The collection of letters at hand presents an image of Egypt in which the Egyptian social

scene is very vividly presented, though the political events of the time and their effect on the country are hardly touched upon. Politics are mentioned in less than one tenth of the letters in the entire collection, otherwise there is an almost entire disregard of the topic, a fact that attracts the reader's attention and may, at first sight, seem strange. This is specially because political awareness, at the time, affected first the educated Egyptians, and it soon gained much wider ground with the declaration of the British protectorate over Egypt in 1914. Furthermore, the appearance of Saad Zaghloul on the political scene just after the Great War marked the beginning of the 1919 revolution (Al-Rafei, 130).⁴

It is noteworthy that during the Great War (1914-18) McPherson himself took part in recruiting Egyptian peasants for the so-called Camel Transport Corps (A Life 159-163). He accordingly saw much of the bitterness this act engendered in the Egyptian provinces. If, according to the British who then controlled Egypt, there had not been a true political awareness beyond the major Egyptian cities, the effects of such political operations were at least deeply felt. McPherson's persistent omission as far as possible of any quarrel between Egypt and England may seem strange. And still stranger is the fact that in the very few instances he mentioned politics in his letters, he adopted the commonly known English imperialistic point of view for which the following example might suffice as an illustration for the moment: He described the behaviour of the Egyptian masses at Saad Zaghloul's release and forthcoming journey to attend the Peace Conference in Paris in 1919 as a representative of the Egyptian government. McPherson wrote:

Up to then I had taken my risk and returned alone each day to my quarters, without availing myself of an armoured car, or any sort of guard, but I could not stand the patronising contempt of the rabble, so returned for the first time in an army lorry. The superstitious applause of fools [i.e. Egyptians] at our folly [ie, Saad Zaghloul's release] was worse than bullets (228).

Otherwise, namely in about ninety per cent of the letters, politics are avoided and a normal friendly intercourse with Egyptians is described as the following excerpt shows:

Zaki met us with a carriage and after tea and a visit to all his patients which interested me infinitely, he put me on a jolly good horse and we rode over the old battlefield of the Crusaders [at Mansoura] by the prison of Louis of France and back by moonlight by the river. I have many friends in Mansura and Zaki had them in to meet me and a merry evening we had (82).

These two different attitudes might, at first sight, strike one as being contradictory and revelatory of a possibly uneven even unbalanced personality. This, however, is far from the truth since McPherson's letters reveal the personality of a quiet, sociable, modest, independent, optimistic man who knew his own mind, was content with his life and surrounding circumstances, and lived peacefully until well over the age of eighty. I explained the apparent though false conflict as follows.

Psychological reasons had encouraged McPherson to come to Egypt: he felt a need to escape an unbearable situation at home and to start a "new life" for himself. Since politics associated his thoughts with Britain, he preferred to avoid the topic as far as he could and indulge wholly in his "Egyptian life". He decided to and succeeded in separating between his private daily life in which he was a lover of Egypt and a friend to Egyptians, and his life as an English government official which linked him with world politics. He thus was a lover of Egypt by choice and a government official by duty and obligation. He preferred, of course, the former role because he was a romantic at heart. Like any other romantic, in this sense he must be compared to romantic poets and prose writers, he was spontaneously and unconsciously attracted to specific things which appealed to him more than others. I cannot see that there was any predetermination in his choice of topics. He usually depicted things which were wholly Egyptian and thus different from anything that was English. These Egyptian topics, or objects or scenes, were usually

related to the land, its traditions, the common people and his Egyptian friends. As can be noticed, the topics that interested him most were the ones that represented the everlasting elements in the country because they stood above politics and beyond the political game that did so much to separate the East from the West. McPherson's choice of topics, which will be amply illustrated later, was not the only thing that made to classify him as a romantic. The letters display further romantic elements such as the abundance of Biblical, Greek and Roman references that appear throughout the text specially in the imagery. This suggests that McPherson preferred to connect Egypt with the past than with its present which associated it with England and the world of politics (A Life, 153, 245). Moreover, Westerners are usually proud of their studies of the Classics. Thus, McPherson unconsciously expressed his positive attitude to Egypt.

Then, there is the recurring image of himself with his lifelong help and later servant Gad Al-Moula which recalls the image of Cervantes' Don Quixote and Sancho Panza.

Moreover, some of the letters are dated according to the Islamic calendar which indicates his interest in the country he came to and his utter absorption in contemplating the scene (A Life, 66).

Besides, the historical names resorted to refer to actual persons or objects as "the Crusaders" to refer to the army of which he was a member in Sinai (163); "Cleopatra" to refer to a young Egyptian girl who "shone out from her fellows, like the moon amongst the stars" (242) "Tammuz" as a name for his horse called after the Phoenician sun-god (178); "Porziuncula" as a name for his house near Guizeh, meaning "A Little Portion", an expression from Fioretti or Legends of St. Francis" (269), among others. All these suggest again his insistence on associating the Egypt he loved with the stable past rather than with the present.

There are also the commentators who mention that McPherson's introduction to his new job as police inspector "powerfully appealed to the side of his character that loved ritual, ceremony and mystery" (207). As

for the missions he undertook for that job, they were narrated in the manner of detective stories, as for instance the mission he called "The Golden Needle" (209-11) and that of "The Beautiful She-Devil and her Mate" (211-215).⁵

Finally, his reliance on first-hand experience to describe Egypt makes him present a new fresh vivid picture of an old country.

All these plus his avowed fascination with Egypt, his love of adventure, his appreciating solitude stress the romanticism of his writing.

McPherson's romantic trait or inclination made him choose the topic, but once it was chosen, the description in itself was realistic and true to life to the extent that it bordered on photographic accuracy. The choice of topics, then, was subjective; the description of the topic, however, was realistic, objective and true to life. His descriptions display an obvious interest in and fondness for the country, its traditions and its people with the politics left out. McPherson's obvious fondness for Egypt did not influence the realism of his writing in the sense that it never fell to the level of cheap sentimentality or dreamy idealisation of the topic envisaged and admired. And romanticism does not necessarily exclude realistic accuracy, a fact that is extremely well explained and illustrated in M.H. Abrams' The Mirror and the Lamp (245-46) for example.⁶

The following excerpts from the letters show some of McPherson's realistic, direct and accurate descriptions which contribute to the authenticity of his image of Egypt.

Describing the landscape, he wrote:

but suddenly the sun disappeared and the night came at once. The beauty of the sight was quite beyond description and surpassed anything I had ever seen in that direction. Half round the horizon there was a blaze of red fire against which the orange and acacia and palm trees were

silhouetted as one sees them sometimes at a firework display (30).

Admiring an Egyptian man, he mentioned:

This man [Sheikh Mohamed Bekheet, the Grand Qadi] is one of the most remarkable and admirable characters that I have met in my life, he only loves work, the prayer and the instruction of his friends and of his co-religionists. Notwithstanding his work as a judge he instructs the young sheiks gratis during six or seven hours of each day, excepting in the month of August. He eats little and seldom, is always gay, and likes to see his guests eat much and often (40).

Watching Saleh, a common servant, he observed:

The drawback to the kid is that he hates to be alone and follows me about like a puppy. If I am reading in the garden, he brings his potatoes and peels them on the grass, or if I am writing in any room he will bring a wild duck and a newspaper and pick the duck on the floor, and he looks very grieved if he is driven away (68).

His friendly attitude to and intercourse with Egyptians can be deduced from the following:

The Qadi and two of his sons came in to lunch in my garden. The younger boy was tremendously delighted with the 'Mergihah' ... and with climbing the apricot trees. The Massieh family... left me a parting injunction to eat as much of the fruit as possible. I can't do much more in that direction than I've done last month (59).

.....
Last evening Mahmud Sidky and his brother Hamid Mahmud paid me a visit from Toukh and consented to stay to dinner... There was no time to borrow a cook, so Hegazi seized a little black boy to help

him, wrung the necks of a few pigeons and managed to raise a little scrappy looking meat, about a pound (60).

The attitude of Egyptians to him can be seen in his student's [Mahmud Salen's] writing:

I cannot put in words the sorrow and sadness I have for your departure. I wept bitterly and all your pupils began to have a retrospect of your kindness, goodness and ability of teaching (52).

The topics McPherson described were Egyptian sights, Egyptian people, his intercourse with Egyptians. His language is direct, accurate, and precise: they are things he lived and felt in his private daily life in which he did not think of his position as an English government official and avoided politics as far as he could. His love for Egypt made very often explain facets of Egypt which he wished his addressee to fully understand and appreciate.

McPherson's fascination with Egypt did not let him lose touch with reality. Presumably in order to allow his addressee in England to grasp and understand a situation, he intermittently drew comparisons between England and Egypt which was rare in Englishmen at the time. Thus, to explain the status of the Khedevieh School, he described it as "a sort of Eton of Egypt," a school for the sons of the well-to-do families (27).

While invigilating at an examination, McPherson described the scene as follows:

It is really a fine sight the exams at the Khedevieh Centre, about 3000 boys in tarbooshes occupying 3 football grounds.... there is not one hundredth part of the cheating and the muddle that accompanies an exam of a couple of hundred boys at Wakefield or any other English school I know. There is absolute silence and order from start to finish (52).

Through these and other comparisons, McPherson was suggesting the similarities between human beings regardless of their nationalities. The human side attracted him, consequently he consciously avoided politics and usually cut the topic abruptly, as in the following excerpt from a letter written in 1910:

The Bourse which was recovering is now worse than ever owing to the assassination [i.e. of Boutros Ghali Pasha] and the return of another Liberal Government [i.e. in Britain] and owing to the intimidation in vogue which had caused honest men to leave the legislative council in fear of their lives.

Egypt however is as fascinating as ever and its perpetual sunshine as delightful (81).

Rejecting the notion of barriers represented by nationality and social class, McPherson admitted his dislike of the company of some of his countrymen in Egypt:

the music of the jackals and bull-frogs and night-owls is far sweeter than Cartwright's piano and McColl's singing in the mess.... I would infinitely rather another year take a handful of pistachio nuts out into the desert and make my Xmas dinner of them under an old pyramid (74).

McPherson's positive attitude to Egypt differed greatly from that of other Englishmen who also wrote about it: during the period that he spent in Egypt, the number of English appointed to the Egyptian administration increased continually reaching its highest number during the years of the First World War (1914-18). Thus, by the beginning of the war the British had established a dominant position in almost every ministry and department (Tignor 181). Hence, memoirs of former English officials in Egypt abound. The following are merely two examples that will suffice to illustrate the attitude of superiority of the writer to Egypt and the Egyptians, his lack of genuine interest in the country, and the absence of feelings towards the object envisaged. Lord

Cecil, for instance, had spent eighteen years in the service of the Egyptian administration. He gave his judgment of Egyptian officials as follows:

The native officials are far too fond of referring questions to superior authority, partly because they are timid, and partly because they have no sense of proportionate importance. This is due to the undeveloped state of their intelligence (88)

Sir Laurence Grafftey-Smith described his walk early in the morning to his Cairo job. It stands out that he did not "see" the land:

The Nile road ran on in a ribbon of palaces and villas behind which there was nothing at all. An immense terrain vague stretched dustily to Prince Mohamed Ali's cactuses and saracenic walls (18).⁷

Regardless of the fact that Cecil and Grafftey-Smith knew that their writings were going to be published and had thus to take an unknown readership into consideration, a fact that can restrain the expression of sincere feelings, the difference between their attitude to Egypt and that of McPherson's speaks for itself.

McPherson's fascination with Egypt does not only appear in his obvious spontaneous admiration of the land, its traditions and its people, but it is also detectable in the curiosity he displayed for facts concerning Egypt and in the extremely lengthy detailed careful descriptions he devoted to traditional Egyptian rites and ceremonies.

The following excerpt is taken from a five-pages long description of a Zzarr ceremony. McPherson reported the facts with photographic accuracy without obvious commentary:

The blood all remained in the basin, and the witch, raising her amice, and receiving from a young woman acolyte, a sort of Humeral veil of white sheening material, she thrusts arms and hands into

the blood, muttering as she mixed it. Then she signed herself with it on her robes... and all the initiates marked themselves in turn. It seemed to have a magic effect, for their previous frenzy had been cold compared with the mad fury which now possessed them. Their hair was torn down by bloody fingers, and their gestures and cries were frantic... (244).

Despite McPherson's love for Egypt, his writing remain true to life and the scene described does not get distorted by cheap subjective sentimentality. Noticeable is that a Zzarr presents a spectacle that easily lends itself to criticism and comment even by native Egyptians. Far from criticizing the scene, McPherson clearly stated that the Zzarr must be an important institution dating back to the Grecian mysteries, or to the cults of Baal and Tammuz (243). This is a further proof of his respect for the envisaged topic and for his acceptance of things as they were.

His attraction to Egypt is further shown in his curiosity to disclose more facets of Egypt as his description of typical Egyptian insects (61-64), his talk about camels and their habits (159), his accurate reports of local tales (48-51) and the traditions related to Ramadan evenings (36), in sum: an overall panorama of Egypt and Egyptian life is unraveled and accurately presented and no sign of idealization can be detected: only plain facts are reported. It is noteworthy that McPherson did neither mention historical Egyptian monuments nor did he draw on ancient Egyptian history in A Life. This is because he was only concerned with his actual experience and never resorted to references as he explicitly mentioned in the introduction of the letters which he addressed to his family readers:

Among their many defects they have one merit, which is certainly rare in writings on the East, they describe people and things at first hand, not from notes supplied by other people who are often interested in adding some political or social colouring, nor from books. This has been carried even further than I should

have wished, for my somewhat unsettled life has deterred me from bringing my books from England, and from obtaining works of reference, so that even quotations are from memory and remain unchecked (13).

The fact that he only relied on first-hand experiences makes McPherson stand out among other Englishmen who also wrote with a positive and loving attitude about their stay in Egypt. Mary Rowlatt, for instance, wrote her A Family in Egypt (1956) years after she had settled back in England. She relied on past memories and historical references in her book. Her writing lacks the vividness and feelings of McPherson's.⁸

Further examples in A Life illustrating accurate descriptions without obvious commentary are the following: the first describes a scene during the battle of Sinai, in 1916, whereas the second presents a scene from the battle of Gallipoli in 1915:

Death must have come on man and beast with marvelous suddenness, for some of the men were lying in their shelters and others sitting up against the trees, and horses had their nosebags on, and camels their boxes of ammunition. The effect of the intense moonlight through the palms was extraordinary. As I lay on the sand in the windward side the company seemed to come to life.... I must have dozed... Suddenly I was jerked violently from my position (170).

Noticeable is the conscious separating line McPherson drew between facts and dreams: his intention was to present an accurate description of the scene. This and the other quotations from the letters show clearly that the topics and scenes were McPherson's personal subjective choice, whereas the description per se was extremely objective and true to life. As for Egypt, namely the focus of attention in the letters, it acts as an underlying theme that endows A Life with both unity and a sense of continuity.

From a letter, written from Gallipoli, we read:

Deaf and dazed, I had the more difficulty in summing up the situation as the geography of our immediate vicinity was fundamentally changed. In place of the mound on which our late neighbour, the sketching man, had been perched, was a yawning crater, for both mound and man had ceased to exist. I doubt if their debris could have been disentangled. From the crater there arose an immense white column shaped just like a lily, with its petals relaxed, a calyx of a darker colour, made up of shell splinters and other things (156).

Photographic accuracy is obvious in the description which was McPherson's conscious intention: he enclosed with this letter a self-drawn sketch of the shell-burst (156). Similar documents accompany others of his descriptions to back and give evidence for the truthfulness of his writings. We have, for example, newspaper cuttings (208), an original blackmail letter (227), the trademark on a wrapping of confiscated drugs (262), self-drawn insects (61-64), among others.

A further example which again illustrates McPherson's endeavour to avoid any criticism of his own and his acceptance of things as they were is the following extract which he wrote after receiving some of the organizers of a Zzarr ceremony he had attended a few days before. Noticeable is the language he uses in this and all other descriptions: it is direct, accurate and to the point:

They had brought greetings from my host, and a goose and some cakes and nuts, because they said 'I had not remained to the feast, and having seen the sacrifice, must partake of the meats' - so loading the old man with tobacco and the little maid with chocolates, and a pretty bottle of sweets of many colours for Munira, and greetings to Mustafa, and Cleopatra, and perfunctorily to the Aalina, I let them depart (246).

The passage reveals McPherson's friendly intercourse with Egyptians and the positive sympathizing attitude the two parties had for each other. Egyptians he met in Egypt became his lifelong friends. Moreover, the passage also shows McPherson's keeping to the description of facts and lacking personal prejudices against Egyptian behaviour. Normally, an English official would have considered the presents a bribe since social gatherings among Egyptians were forbidden in 1920 by government decree and McPherson had consented for the celebration to go on (Young 219).

The English were usually prejudiced against Egyptians and considered them dishonest, sly, cowardly and self-seeking. In George Young's Egypt (1927), for instance, a whole chapter entitled "The War" dealing with the Egyptian protectorate of 1914 and the war measures that were undertaken to safeguard so-to-speak Egyptian rights shows that even well-known reputed scholars were prejudiced against the people. Talking about the reintroduction of the "corvee" system to recruit Egyptian peasants to the war, Young stated that it was originally the idea of the Egyptian government and added:

But we may assume they did not wish to render their own conscription odious for no benefit to Egypt, while they saw no objection to rendering the British odious by restoring the "corvee" for their benefit (223).

Another regulation set by the English government as a wartime precaution was that of indiscriminate disarmament. It was said that the Egyptian government had agreed. Young's comment about this was:

there seems some reason for suspecting that it was another Egyptian experiment in practical anti-British propaganda (224).

It becomes clear from Young's writings that British good intentions and magnanimity to Egyptians were said to have been taken advantage of by Egyptian cunning, slyness and egoism. This shows the strength of national prejudices that hindered mutual understanding and did so

much to turn the two nations into die-hard enemies. So, Young stated:

When the necessary food and fuel control, police and sanitary regulations, or other workings of the war machine caused inconvenience, the Egyptian government succeeded invariably in transferring the blame to the broad shoulders of the British (226).

McPherson did not share these prejudices. He insisted on participating with the people whenever the occasion offered itself which included even prayers as the following lines show:

There is nothing I object to, or that I think anyone could object to, in the prescribed prayer, which consists of certain Divine Praises, the opening chapter (Fattah) of the Koran, which greatly resembles the Pater Noster, and in a general salutation to all present, the Salaam Alekum, and no reference whatsoever to the Prophet.... I got through the five appointed 'Rikaas' without incident but found to my horror that no one stopped. There were twenty traditional Rikaas for the last prayer of a Ramazan day (105).

Again we have an accurate description and no evidence of comment except for the mild humour that appears in the last two sentences. And humour, which abounds in A Life, is usually an expression of a sympathizing and understanding attitude. McPherson's characteristic mild humour never developed into critical irony and cannot be regarded as a sign of disrespect neither to Egypt nor to Egyptians. McPherson's intention in this specific quotation was to share in the prayers which gave him a sense of belonging.

The editors of A Life were well aware of McPherson's genuine love and respect for Egypt and, thus, added the following dedication to the collection when it appeared in book form:

To
The Land and People of Egypt,
The inspiration of the Letters, and
The Kinsmen who valued them. (4)

Furthermore, Durrell himself wrote in the introduction to A Life the following about McPherson's sense of humour and his relationship with Egyptians:

The Egyptians loved him and thought of him as a sort of seer, though his sense of humour and witty turns of phrase made him more approachable than the ordinary holy man (7).

As a lover of Egypt, McPherson's certainly proved to be different from most other Englishmen of his time. He devoted his leisure to indulge in his Egyptian life. He managed to dissociate between his private life and his life as an English government official which is hardly felt to exist in the letters. This successful separation enabled him to describe the everlasting elements of Egypt, namely, the land, its traditions and its people: they finally represent the essence of the country besides which the powerful political game appeared transitory and of minimal importance. We could call this McPherson's philosophical vision of life.

The image of Egypt that emerges from the point of view of McPherson the lover of Egypt is a peaceful Egyptian social scene which is very similar to the one produced a century before in Edward Lane's Modern Egyptians (1836) about which Rashad Rushdi wrote:

[Lane's] keen eye, a very studious disposition, and the necessary tools for observation among which was his intimate knowledge of Arabic [helped him to produce a work that] satisfied a public demand in such a way as no other book of its kind had been able to do [because] it had sought to portray modern Egyptian life at a time when it was completely Egyptian (36-7).

McPherson's A Life was produced a hundred years after Modern Egyptians (1836), and yet Rushdi's judgment of it can also be applied to this contemporary work. This is because it also presents an Egypt which is completely Egyptian and from which the politics are left out.

Other references to Edward Lane's Modern Egyptians could also apply to McPherson's A Life. These are, for example, Moursi Saad El-Din's introduction to the 1954 edition of Lane's classic in which he wrote the following:

There are very few books on nineteenth-century Egypt that can be regarded as classics. This is certainly one of them. Modern Egypt has suffered greatly from two types of books; the one which is written by the hasty traveller who does not bother to record more than what he sees in the Mousky Bazaar, the other by the well-meaning European once in the service of the Egyptian Administration who assumes a patronizing attitude. It would be difficult to say which of the two has done Egypt more harm; certainly neither of them has done her justice. Egypt needs explaining, not defending.

Lane's book is an essay in objective social research. The author was, in modern sociological jargon, a 'participant observer' (v-vi).

Saad El-Din's comment fully applies to McPherson's A Life since both Lane and McPherson were "participant observers". Though they lived in different historical periods, they shared the same attitude to Egypt, the same feelings for Egyptians and had obviously the same vision of life.

Thirty years after Saad El-Din, Lawrence Durrell actually linked Lane's work to McPherson's in his preface to A Life and wrote:

Now comes a much greater work [i.e. greater than Lane's!], also a classic, which fills in the gulf which yawns

between the massive and beautiful book by Lane - his Modern Egyptians - and the present. There have been many books of political analysis and of gossip but nothing... which bears the authentic stamp of first-hand knowledge as this one does (7).

These judgments on Lane's Modern Egyptians (1836) link it to McPherson's A Life (1983). Both authors coincide in their love for Egypt which made them remain in the country much longer than initially intended.

McPherson, as we mentioned before, used his different posts in the Egyptian administration as a means of knowing Egypt and as a reason for staying in it. Politics and worldly matters were out of his field of interest. Indeed, he had a clear attitude to them as he stated in 1919:

Politics is a form of immorality, from which, thank God, I have kept clean (222).

He avoided the subject and never showed any interest in it. This backs his philosophical vision of life, namely, that the political game hindered a true understanding between nations and people. Thus, coming back from a holiday in England in 1920, McPherson stopped in Paris where the Peace Conference was in session and at which Saad Zaghloul and his delegation tried to take part. McPherson felt that he had to pay his respects at their hotel and actually met them but did not mention details about his meeting in his letters from Paris which the commentators noticed (A Life, 247). In the letter itself we read:

The next and last day, Thursday, No. 25 I went in the morning to the 'Grand', on the hunt for Zaghloul's party. Barari Pasha and some other people I met in Cairo were there, and I got fixed up, rather to my regret, for dinner (247-48).

The different government posts McPherson occupied in Egypt forced him at times to judge matters from the stand point of an English official. On these occasions

which, incidentally, are very few in A Life. He adopted the English haughty colonialist attitude utterly deprived of his habitual sympathy for Egyptians. It seems that when provoked, the influence of a deeply rooted British upbringing proved stronger than his humanistic efforts to stand above politics.

English recruits to the British colonies were actually taught to adopt a definite attitude to the people. The so-called imperialistic colonialist attitude of English administrators in the British colonies was characterized by British exclusiveness and arrogance. Young English recruits were sometimes lectured and told that one of the basic principles of the proper social conduct in Egypt was not to associate with Egyptians outside work. This, of course, created a barrier between the English and the Egyptians. The British showed arrogance and a feeling of racial superiority and regarded the Egyptians "as inferior and backward people, to be treated as children" (Tignor 193).⁹

The origin of this feeling of superiority goes back to the late nineteenth-century European experience and especially to the popular Darwinian theories of the age. England and other European countries adapted part of Darwinism to their own advantage in order to help their chosen foreign minorities to rule over an entire country of natives. Tignor explained:

One method by which the British were able to control this population was that of extolling their own racial superiority, maintaining their isolation from Egyptians, and treating the Egyptians as kindly, but inferior people. This attitude instilled fear and respect in the populace, so long used to having an alien minority rule by many of the same technique. When supplemented by force or the threat of it and coupled with genuine efforts to bring material and other benefits to the subject peoples, this technique enabled the British to maintain order with a minimum of drain on the military establishment (195).

Thus, it would not be exaggerated to say that the simplest English official believed truly that he was superior by birth and nature to any Egyptian, and felt he had the right and even the duty of adopting a patronizing, patriarchal attitude.

This peculiar though well-known interpretation and adaptation of the Darwinian theory to suit imperialistic aims is, perhaps, best explained in Edward Said's Orientalism (1978) in which Said wrote:

Race theory, ideas about primitive origins and primitive classifications, modern decadence, the progress of civilization, the destiny of the white (or Aryan) races, the need for colonial territories - all these were elements in the peculiar amalgam of science, politics, and culture whose drift, almost without exception, was always to raise Europe or a European race to dominion over non-European portions of mankind. There was a general agreement too that, according to a strangely transformed variety of Darwinism... the modern Orientals were degraded remnants of a former greatness (232-3).

Said also explained about Darwinism in relation to colonialism and said that it

seemed to accentuate the 'scientific' validity of the division of races into advanced and backward, or European-Aryan and Oriental-African. Thus, the whole question of imperialism, as it was debated in the late nineteenth century by pro-imperialists and anti-imperialists alike, carried forward the binary typology of advanced and backward (or subject) races, cultures, and societies (206).

It goes without saying that all this greatly influenced the general attitude of most Englishmen to the inhabitants of their colonies, specially if they happened to be English officials on duty abroad. McPherson bequeathed, of course, the same heritage since by birth,

upbringing and education he was an Englishman, a fact he never tried to deny, change or forget. Thus, while in Egypt, he privately never thought of converting to Islam and thus remained a Catholic till his death; he always dressed in the European way; he ate Western food (A Life 60, 111), he loved sports and played golf (A Life, 108-9), and even coached a football team (A Life, 54-5); he visited his family in England whenever he could; in short, he kept his integrity as a true Englishman by birth and education which adds greater value to his genuine love for Egypt and the Egyptians. What makes him stand as an exception among other English government officials in Egypt was his drastic avoidance of politics which he knew to be associated with a set of known prejudices, definite attitudes and behaviour that he obviously disliked. If obliged to judge matters as an English government official, however, he spontaneously reacted and behaved like most of his colleagues. Thus, the editors of the letters noticed the following about him:

Throughout the pre-war period, the letters indicate that his interest in politics was minimal. But when the upsurges of Egyptian nationalism forced him to pay attention, he was revealed - in spite of his great liking and quick sympathy for Egyptians - as a conventional Victorian imperialist, holding firmly that British 'paternal' rule must be for the good of the subject people, and scorning those who believed otherwise (81).

Personally, I do not think that McPherson's fascination with Egypt ever changed after the war, as the editors assume, but rather believe the following: when he was free from government responsibilities, he felt he could display his true feelings for Egypt which were always, as has been shown, sincere, honest and spontaneous. Judging matters, however, from his position as an English official, which he obviously disliked and thus avoided, he spontaneously followed the official English line and reacted like any other Englishman. This is the reason why McPherson usually avoided mixing politics with his private daily life. If he were given the choice, it is to be assumed that he would have crossed

out politics from his life, which he could not afford because it was his English governmental position that allowed him to be in Egypt. Though scarce, specially in compered to his lengthy descriptions of the Egyptian social scene, examples for McPherson the government official appear throughout the text: As a Police Inspector, he considered Egyptians open to bribe at any time (204-5); he considered them cowardly (224, 230); he thought that the English had liberated the Egyptian peasants from life-long slavery (237) among other things. McPherson did not differ from his English colleagues when it came to judging matters from the position of an English official, as the editors of A Life mention:

McPherson's reactions to Egyptian nationalism before the war had already shown that, for all his rapport with Egyptians, he was politically a conventionally Victorian imperialist, insofar as he gave much thought to the matter (237).

He even showed anger against Lord Allenby when the latter for once showed a sympathizing and understanding attitude to Egyptians. Thus, in 1919, he wrote home referring to the political situation and to Allenby's decisions as follows:

For nearly twenty years now, I have been sending home scraps of information about the East, and I suppose I ought not to be silent on the recent events in Egypt, though it is as depressing to write about these days of shame, as it will be for you to read the unpleasant facts (223)

Allenby... had the inspiration of a madman and in opposition to his own advisors at the Residency... set up Zaghlul and their other false gods on a pedestal (227).

Allenby's decision of recommending the release of Saad Zaghlul and his colleagues from their deportation in Malta and to give them permission to proceed to Europe did not only come as a shock to McPherson and other English officials in Cairo, but also to the

British Government in England. Not to be forgotten is that the new High Commissioner had arrived in Cairo on 25 March 1919, and that his first proposal was to make the mentioned concession on 31 March (Wavell 44). McPherson sided with the English public opinion because the matter was directly related to his position in the English administration. It is also because, when obliged to judge matters as an English official, he could not, after all, abandon his "Englishness" and felt that he had to follow the official English line.

This second image of Egypt that emerges from the opinions and dealings of McPherson the English government official is a poor lifeless image which coincides with that of most other stern Englishmen who had lived here and wrote about their stay. In this second image, Egypt and its people recede to the background and become merely a means of explaining and showing the qualities and possible drawbacks of Britain and its colonial politics. This second image cannot stand by itself and can only gain importance when added to other works of the same kind that adopt the same imperialistic attitude.¹⁰

A Life in Egypt (1983), as has been shown, presents an authentic and reliable image of Egypt in the early twentieth century. This is, of course, closely related to the letters being a valuable literary work. If envisaged as a literary work, the topic of Egypt - entailing the land, its traditions, and its people - plays the role of a major underlying theme that endows the collection with unity and a sense of continuity. The choice of topic was not predetermined, but Egyptian scenes, Egyptian objects, Egyptian people and situations in Egypt were chosen at random. Because of the romantic inclination and tendencies of McPherson, they ended up by being wholly Egyptian things. Each description in itself is objective and true to life because it is devoid of the writer's personal comment: he limited himself as far as he could to a mere presentation of the scene, and only dealt with first-hand experiences. As for the language he used, it is accurate, direct and to the point which characterises his descriptions with almost photographic accuracy.

McPherson's ability to separate between his private life and his life as an English government official

singles him out among his compatriots. Privately, he avoided politics and thus was able to look at Egypt devoid of the usual prejudices that are related to the world of politics and hinder clarity of vision and a true understanding between people belonging to different nations. In this sense, he had a particular vision of life through which he looked at things beyond and above politics which also contributed to the authenticity of the image he presented of Egypt.

A Life in Egypt, then, presents two facets of McPherson, namely McPherson the romantic lover of Egypt, and McPherson the English official in the Egyptian administration. Consequently, two different images emerge from the text: the first is a realistic description of the land and its people which is reliable and sincere, and, with no doubt be considered as a classic in its field of specialization. The second is a lifeless image that is only there to reflect British politics abroad. Both are honest expressions of reality.

ENDNOTES

1. All references to the original text will be to Harry Carman and John McPherson (eds.): Binbashi McPherson: A Life in Egypt. (London: BBC, 1983). The title of the book will be abbreviated by that of A Life. Page references will be included in the text.
2. See Alastair Fowler: Kinds of Literature: An Introduction to the Theory of Genres and Modes (USA: Harvard, 1982) intr. in which the author explains the way in which not yet established literary forms, as compiled letters and diaries for example, are gradually being accepted as literature.
3. Tignor states that since the 1890s, English personnel were recruited to the Egyptian administration. This usually consisted of young men who were brought out to teach English and other subjects in the Egyptian primary and secondary schools. After a few years, these young men were usually moved into other branches of the administration especially in the Ministries of Finance and Interior. Thus, McPherson's career in the Egyptian administration followed the

normal development of that of most other English recruits.

"Binbashi" equals "Bigbashi," a Turkish military rank and means lieutenant-colonel.

4. Al-Rafei explains the manner in which the revolutionary mood started in Cairo in March 1919 and the way it reached the provinces and spread there through the educated: social unrest and instability accounted for the closing of schools and universities. A great number of the students was originally from the provinces. They went back home carrying with them the new revolutionary spirit.
5. Compare to Russell Pasha's reports on his own missions. They resemble McPherson's accounts both in their content and style. This proved that he did not manipulate his material.
6. Abrams book deals mostly with poetry and the creative experience of poets. The romantic experience, however, can be applied to any kind of creative art in which the artist's choice of topic is subjective whereas the description per se is objective.
A live example for this romantic experience is Doreen Anwar's, author of Nile Reflections (Cairo: A.U.C., 1986), who took part in the discussion that followed the reading of this paper on 19 Dec. 1989. She admitted that her love for Egypt when she first arrived in 1946 did not let her see things like poverty and dirt. Hers is another romantic outlook like McPherson's.
7. For further examples in Cecil, see p. 24 and p. 205. The underlining in Grafftey-Smith quotation is mine.
8. Mary Rowlatt was born in Egypt in 1908. She was daughter of Sir Frederick Rowlatt who was governor of the National Bank of Egypt. See chaps VII and VIII in her A Family in Egypt in which she sums up part of Egyptian history for which she obviously relied on historical references.
9. These are well-known facts about which any Egyptian who lived in Egypt during the period of the British

occupation could talk at length relying on first-hand experience.

It will be noticed that I rely on Tignor more often than I do on other historical references. This is because I found it suited my purpose on certain points more than other references, and also because I felt that he did not take sides with either Egypt nor Britain but kept a balanced middle line.

- 10 See, for instance, E. Polson Newman, Great Britain in Egypt. (London: 1928): Newman, a former major in the Egyptian army, tried to draw an objective picture of Egypt during the English occupation and finally only succeeds to show Egypt's indebtedness to England. The relationship between England and Egypt, for example, is compared to that of a parent and his child in which the child (i.e. Egypt) refuses to take a useful meal or medicine because he is too inexperienced to know about its beneficial results (see intr.). This attitude of superiority towards the colonies was too deeply rooted in the English of McPherson's generation. Thus McPherson could not easily avoid it when he judged matters as an English official in the Egyptian administration. Today, this attitude has changed to a great extent as can be noticed in the comments of the editors of A Life.

Works Cited:

- Abrams, M.H.: The Mirror and the Lamp. Romantic Theory and the Critical Tradition, 1953. London: OUP, 1971.
- Al-Rafei, Abdel Rahman: Thawret Tesa'tashar. 1946. Cairo: Dar Al-Shaab, 1968.
- Anwar, Doreen: Nile Reflections. Cairo: AUC, 1981.
- Carman, Barry and John McPherson (eds.): Bimbashi McPherson: A Life in Egypt. London: BBC, 1983.
- Cecil, Lord Edward: The Leisure of an Egyptian Official. London: Hodder and Stroughton, 1938.

- Chapple, Y.A.V. and Arthur Pollard (eds.): The Letters of Mrs Gaskell. Manchester: Manchester University Press, 1966.
- Duff-Gordon, Lucie: Letters from Egypt. 1865. London: Virago, 1986.
- Forman, Maurice (ed.): The Letters of John Keats. London: OUP, 1952.
- Fowler, Alaister: Kinds of Literature. An Introduction to the Theory of Genres and Modes. U.S.A.: Harvard, 1982.
- Grafftey-Smith, Sir Laurence: Bright Levant. London: John Murray, 1970.
- Haight, Gordon (ed.): The George Eliot Letters. New Haven: Yale University Press, 1954-5.
- Lane, E.W.: Manners and Customs of the Modern Egyptians. 1836. London: J.M. Dent, 1954. (intr. Moursi Saad El-Din).
- Latham, Robert and William Matthews (eds.) Samuel Pepy's Diary. Berkely: University of California Press 1970-1983.
- Newman, E.P.: Great Britain in Egypt. London: 1928.
- Ramadan, Abdel-Azim (ed.): The Memoirs of Saad Zaghloul (4 vols.) Cairo: The General Egyptian Book Organization, 1987, 1988, 1990, 1991.
- Rowlatt, Mary: A Family in Egypt. London: Robert Hale, 1956.
- Rushdi, Rashad: The Lure of Egypt. Cairo: Anglo-Egyptian Bookshop, s.d.
- Russel Pasha: Egyptian Service, 1902-1946. London: John Murray, 1949.
- Said, Edward: Orientalism. 1978. London: Routledge, 1980.

- Selincourt, E. (ed.): Journals of Dorothy Wordsworth. New York: McMillan, 1941.
- Tignor, R.L. Modernization and British Colonial Rule. U.S.A.: Princeton, 1966.
- Wavell, Viscount: Allenby in Egypt. London: George G. Harrap, 1943.
- Young, George: Egypt. London: Ernst Benn Ltd., 1927.